منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
THE UNION OF IRAQI WRITERS PUBLICATIONS

قصص

الغرانيق تطيرُ جنوباً

اختارها وترجمها: ماجد الحيدر



الفرانيق تطيرُ جنوباً

قصص ونصوص عالمية

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
THE UNION OF IRAQI WRITERS PUBLICATIONS

بطاقة الفهرسة

823

س 298 ستوكتن، فرانك
الغرانيق تطيرُ جنوباً / فرانك ستوكتن (و7 آخرون)، ترجمة ماجد الحيدر ط 1
بغداد: الاتحاد العام للأدباء، 2025

178 ص 21×14 سم

1-القصص الانكليزية أ. الحيدر، ماجد (مترجم) ب. العنوان

رقم الإيداع

م.و 3285 / 2025

المكتبة الوطنية/ الفهرسة أثناء النشر

الطبعة الأولى 2025

رقم الإيداع(3285) في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة 2025

ISBN: 978-9922-761-24-4

إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق - بغداد

Published by The Union of Iraqi Writers

Baghdad - Iraq

تصميم الغلاف: شروق سمير

اختارها وترجمها
ماجد الحيدر

الفرانيق تطيرُ جنوباً

قصص ونصوص عالمية

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
THE UNION OF IRAQI WRITERS PUBLICATIONS

تقديم

هذه اضمامة من القصص العالمية التي ترجمتها في مراحل مختلفة من رحلة الترجمة الأدبية الطويلة اللذيذة. وعلى الرغم من أن دافعي لاختيار هذه النصوص كان دافعاً شخصياً مبعثه إعجابي بها أو بكُتّابها، فقد حرصت فيها على التنوع والاختلاف سواء في الحقبة التاريخية أو البلدان التي ينتمون اليها أو الأساليب الفنية التي تبنوها أو حتى في تعاملهم مع مفهوم القصة القصيرة، وهو مفهوم ما زال قابلاً للنقاش والجدل ومشتبكاً ومتداخلاً مع فنون وأجناس أدبية أخرى مثل الشعر والمقالة والعمود الصحفي والمذكرات الى وقتنا الحاضر

لفن القصة القصيرة تاريخ طويل ومعقد ومتنوع بتنوع الثقافات واللغات. يمكن تتبع تاريخ تطور هذا الفن الى العصور القديمة- عصور الأساطير والحكايات الشعبية، أيام كانت الحكايات تروى شفهيًا وتتناول قصص الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الخارقين، مثل تلك يحفل بها الأدب الإغريقي والهندي والرافديني والمصري التي تحتوي على عناصر سردية تشبه القصة القصيرة.

لكن أغلب الباحثين يتفقون على أن القصة القصيرة أخذت شكلها الحديث، كنوع أدبي مستقل، في القرن التاسع عشر علي يد كتّاب مثل إدغار آلان بو في الولايات المتحدة الذي يُعتبر من أوائل الذين طوروا الفكرة الأدبية للقصة القصيرة، وأشار في مقاله له إلى أهمية الوحدة في الانطباع الذي تتركه القصة القصيرة على القارئ،

وكانت قصصه مثل «الغريب في القطار» و»البندقية المفقودة» تمثل نمط الكتابة المبنية على الإثارة والغموض، فضلاً عن أنطوان تشيخوف الذي كان واحداً من أعظم كتّاب القصة القصيرة في التاريخ، حيث اتسم أسلوبه بتصوير الشخصيات والبيئات بشكل دقيق، وعكست أعماله معضلات نفسية واجتماعية عميقة.

أما القرن العشرين فقد شهد ثورة في شكل القصة القصيرة ومضمونها، وتطورت أساليب الكتابة بشكل أكبر مع ظهور تجارب قصصية مهمة وظهور تيارات جديدة مثل تيار الوعي على سبيل المثال لا الحصر على يد كتّاب مثل فرجينيا وولف وسكوت فيتزجيرالد وأرنست همنغواي الذين قدموا رؤى متنوعة حول الحياة والوجود. فاشتهرت فرجينيا وولف بأسلوبها التجريبي مستخدمة تقنيات السرد الداخلي. كما استخدم أرنست همنغواي أسلوب «جبل الجليد» القائم على الحذف وتقديم الأحداث بطريقة بسيطة وغير غارقة في التفاصيل تاركاً للقارئ مهمة فهم واستيعاب ما خفي من معانٍ، إذ يُمكن تلخيص نظريته هذه بكلماته التالية (إذا كان الكاتب يعرف ما يكفي مما يكتبه، فإن لديه القدرة على حذف الأشياء التي يعرفها هو والقارئ على حد سواء. إذا كان الكاتب يكتب ما يكفي حقا، سيكون هناك شعور بتلك الأشياء وبقوة كما لو أن الكاتب قد ذكرها)

لقد كان القرن العشرين، بحق، قرن القصة القصيرة سواء في العالم الغربي أو العالم النامي حيث شهدت تطوراً عظيماً سواء في المحتوى (الفقد، والغرابة، والانتماء، ومشاكل الهوية والصراع بين

المحافظة والتجديد الخ) أو الأسلوب (حيث انتقلت من الأسلوب التقليدي إلى أساليب أكثر تعقيدًا وتجريبية) كما أثرت ثورة المعلومات والترجمة الآلية ووسائل الإعلام الاجتماعية ومنصات النشر الرقمي في العقود الأخيرة على شكل القصة القصيرة وساهمت في ابتكار وشيوع أشكال جديدة تناسب الجمهور الرقمي.

إن القارئ لهذه المجموعة سيدرك بسهولة ما أشرنا اليه من اختلاف في فهم بنية القصة القصيرة وأساليبها باختلاف الأزمنة والأمكنة؛ وسوف يتنقل من قصة ستوتكن التي تعرض (بطريقة مرحة وبسيطة في الظاهر) واحدة من الأسئلة القديمة عن الفرق بين الحب والرغبة في الامتلاك الى قصة كارل تشابك التي حملت انذاراً مبكراً من هيمنة التفكير الآلي الجامد وعالجت مشكلة الاغتراب وسلب الحضارة الحديثة للموهبة والابداع الانساني لصالح التعقيد ولغة الأرقام وصرامة المقاييس الأكاديمية، الى قصتي الجورجي إراكلي لوموري التي تحمل بأجوائها الغرائبية الكثير من السخرية وكانت من علامات النقد الجريئة التي صاحبت الأعوام الأخيرة من عمر التجربة السوفيتية، الى قصة/ مقالة جوناثان سويفت الموجعة بسخريتها السوداء والتي ظهرت قبل الظهور (الرسمي) للقصة القصيرة الحديثة وحملت إحدى علامات التداخل الذي أشرنا إليه بين القصة القصيرة والمقالة الأدبية، الى قصة (الغرانيق تطير جنوباً) للكندي شبه المنسي ماك كورت التي تعالج في مسحة من الحزن الشفيف لهفة الانسان في أيامه الأخيرة الى الرحيل والعودة الى براءة الطفولة وذكرياتها، وصولاً الى قصة لورنس (أحد سادة السرد في

العصر الحديث) التي تعالج موضوعاً طالماً عاد إليه في قصصه ورواياته وأشعاره: موضوع العلاقة الملتبسة بين الرجل والمرأة وبينهما وبين النزعة المادية الاستهلاكية التي سادت العالم وحرمت الانسان من براءته ومتعته الحقيقية، الى صرخة ستيفن كرين ضد بشاعة الحرب وسحقها لكل جميل وواعد، الى طقوس الموت الشكلية في قصة موت في دلهي، تلك الطقوس التي تحيل الانسان الى مجرد جسد يتم التخلص منه ويضيع في صخب المدينة الكبيرة وتفاصيلها اليومية الروتينية، الى حكاية بويل عن الطفل الذكي الواعد الذي يتمتع بقدرة خارقة ويستغله مجتمع متخلف وأسرة جاهلة لتحقيق مكاسب مادية رخيصة بدلاً من السماح له بالنمو في بيئة صحية حانية تفيده وتفيد البشرية، الى نصائح كوري فورد على لسان كلب التي تبين الأساليب الصحيحة لرعاية الحيوان الآدمي الأليف في العصر الحديث! الى قصة الفرنسي ديفينروا التي تقوم على المفارقة مع المثل الشائع الذاهب الى أن الثياب لا تصنع الانسان مروراً بالقصة الفكاهية لهيوود براون التي يرسمها في جو فنطازي لا يخلو من اشارة عميقة الى أكاذيب البطولة وصنع الابطال في كل زمان مروراً بقصة زادي سمث الما بعد الكولونيالية التي تتناول واحدة من المشاهد التي غدت مألوفة لشعوب لم تكد تفلت من براثن الاستعمار المباشر حتى سقطت في دوامة الحروب الأهلية والعنف الأهوج وانتهاءً بقصتي ثيربر التي تتخذ شكلياً قالب قصص الأطفال التقليدي وتذكرنا بحكايات لافونتين وشارل بيرو وكليلة ودمنة.

أرجو أن تقدم هذه الاضمامة من القصص العالمي رحلة ممتعة ومفيدة للقارئ الكريم وأن تشكل إضافة متواضعة على معرفته بالأدب العالمي وعوالم القصة القصيرة الجميلة!

عروسٌ أم نمر؟
فرانك ستوكتن[1]

في زمنٍ موغلٍ في القدم عاش ملكٌ نصف بربري، رجلٌ ذو أهواء لا تحدها حدود وسلطانٍ بلغ من قوته أن كل ما يخطر في باله يتحول في الحال الى حقيقةٍ واقعة. وكان أيضاً مغرماً بمشاورة نفسه، وعندما يتفق مع نفسه على شيء فإنه يجد سبيله الى التنفيذ فوراً.

حين تسير الأمور على ما يرام تراهُ لطيفا ودودا كريماً، لكنه حين يواجَه بعقدةٍ ما، يغدو أكثر كرما ولطفاً، ذلك لأنه لا يُسعَدُ بشيء في الدنيا مثل سعادته بتقويم ما يراه معوجّاً وتسوية الأماكن غير السوية بالأرض!

وكان ميدان الجِلاد العمومي واحدا من نزواته التي استعارها من جيرانه «المتحضرين». إذ وجد فيه المكان الذي يهذب ويطهر عقول العامة حين تُعرض أمامهم ضروب الشجاعة الآدمية

(1) (1834-1902) Francis Richard Stockton روائي وقاص أمريكي. ولد في بنسلفانيا، عمل في الحفر الفني على الخشب رافضا دراسة الطب كما أراد له أبوه ثم اشتغل في صحافة الأطفال وأصدر العديد من المجاميع القصصية للصغار قبل أن يتحول الى الكتابة للكبار مبتدئا برواية «مزرعة رودر» عام 1879 التي تتحدث عن المغامرات الخيالية العجيبة لعائلة تعيش في زورق نهري. وقد شجعه نجاح الرواية على إصدار العديد من الروايات الطريفة الممتعة، كما ألف كتاباً في التاريخ عن قراصنة السواحل الأمريكية. عُد ستوكتن واحداً من أشهر الكتاب الفكاهيين في الولايات المتحدة وطبقت شهرته الآفاق عندما نشر قصته «عروس أم نمر» التي ندم على كتابتها لأنها نغصت حياته حيث ما انفك الناس يسألون «كاتب قصة عروس أم نمر» -كما أصبح لقبه- عن «النهاية الحقيقية» لقصته، تلك النهاية التي تعمد الكاتب أن يتركها مفتوحة لإثارة التساؤل الأخلاقي عند القارئ.

والحيوانية. لكن هذا الخيال البربري الذي لا تحده حدود أبى إلا أن يؤكد نفسه ها هنا أيضا؛ فهذا الملعب الكبير بأروقته الدائرية وقبوه الغامض وممراته الخفية كان موضوعاً لعدالةٍ شاعرية يتم على يديها معاقبة الجريمة ومكافأة الفضيلة في أحكام تصدر عن الصدفة العادلة العمياء. فعندما يتهم شخصٌ ما بجريمةٍ تبلغ من الأهمية حد أن تثير اهتمام الملك يُعلَن على الملأ أن مصير المتهم سيتقرر في هذه الحلبة. وإذ يجتمع الناس في المدرجات والأروقة، ويجلس الملك على عرشه العالي وقد أحاطت به حاشيته يعطي إشارته فيُفتحُ بابٌ أسفل موضع العرش ليخطو المتهم الى الحلبة ويجد قبالته تماماً، في الجانب الآخر من الحلبة المسوَّرة، بابين متجاورين متشابهين تماماً. وهنا سيكون من واجب المتهم، ومن امتيازاته أيضاً، أن يتقدم نحو واحد من البابين ويفتحه. نعم، كان من حقه أن يفتح أيّا منهما، دونما مؤثر خارجي أو دليلٍ يقوده سوى المصادفة العادلة العمياء التي ذكرناها. فإذا فتح واحدا منهما خرج اليه نمرٌ جائع، من أكثر النمور ضراوةً ووحشية، ليثب عليه في الحال ويمزقه إربا إربا، عقابا له على جريمته. وفي اللحظة التي يتقرر فيها مصير المتهم بهذه الصورة الشنيعة ترنُّ الأجراس الحديدية الحزينة، ويتعالى صراخ النادبات الأجيرات اللاتي اصطففنَ خلف سياج الحلبة. أما أفراد الجمهور المحتشد فيمضون الى بيوتهم، برؤوسٍ منكسة وقلوبٍ تقطر ألماً لأن رجلاً في ريعان الشباب والجمال أو شيخاً وقوراً مسِنّاً قد لاقى مثل هذه الميتة البشعة.

أما إذا فتح المتهم الباب الآخر فستخرج اليه امرأة! امرأة يختارها صاحب الجلالة من أكثر النساء ملائمة لعمر المتهم ومركزه بين جميع رعاياه. ويتم في الحال تزويجه منها مكافأة له على براءته. ولا يهم بالطبع كون الرجل متزوجاً بالفعل أو أن قلبه يميل صوب امرأة أخرى؛ فالملك لا يسمح لترتيباتٍ مغايرةٍ كهذه بأن تعرقل منظومته العظيمة للثواب والعقاب. ولسوف تجري مراسيم الزواج في الحال، وفي نفس الحلبة؛ إذ ينفتح بابٌ آخر تحت عرش الملك، ليخرج منه كاهنٌ تتبعه ثلة من المنشدين والراقصات ويتقدمون وهم يطلقون أنغام الفرح من أبواق ذهبية الى حيث يقف الزوجان جنباً الى جنب، ثم تتم المراسيم السعيدة في عجالةٍ، فتدق الأجراس النحاسية الطروب وترتفع صيحات الفرح من الحاضرين، ويمضي الرجل الذي بُرِئت ساحته، يتقدمه صغارٌ ينثرون الورد في طريقه، ليقود عروسه الى بيته.

تلك كانت طريقة الملك نصف البربرية لتطبيق العدالة، وعدالتها المطلقة واضحة بالطبع للعيان. فالمجرم لن يفلح في معرفة الباب الذي يؤدي الى العروس، إنه يفتح أي باب يشاء دون أن يملك أدنى فكرة إن كان سيتزوج أو يُفتَرس في اللحظة التالية. ربما خرج اليه النمر، وربما خرجت اليه العروس. وليست القرارات عادلة وحسب، لكنها قاطعة حاسمة؛ فالمتهم يعاقَب في الحال إذا وجد مذنباً أو يجازى من فوره على ذنبه، شاء ذلك أو أبى، فلا فرار مما يصدر عن حلبة الملك من أحكام.

كانت هذه المناسبات تحظى بشعبية كبيرة، فحين يجتمع الناس في يوم من أيامها المشهودة لا يعرفون إن كانوا سيشهدون مذبحة دموية أم عرساً بهيجاً، وعنصر الغموض وانعدام اليقين هو الذي يضفي على الحدث سمة الترقب والتشويق التي تجذب اليه الناس الذين كانوا يحصلون على المتعة والتسلية. أضف الى ذلك أن صفوة المجتمع لن تستطيع اتهام هذه الترتيبات بالابتعاد عن الإنصاف: ألم يكن تقرير الأمر بيد المتهم نفسه؟!

وكان لهذا الملك نصف البربري ابنة في ريعان شبابها ونضارتها وكأنها واحدة من نزواته الوردية ولها روح متقدة ومستبدة مثل روحه هو. وكانت، كما هو معتاد في هذه الحالات، قرّة عينه وأحب الناس الى قلبه. وكانت حاشيته تضم فيما تضم شاباً له من رفعة الأصل وضآلة المركز الوظيفي ما اعتدنا عليه عند أبطال القصص الرومانسية التقليدية الذين يعشقون أميراتهم.

وكانت هذه الأميرة راضية بحبيبها، فقد كان وسيماً وشجاعاً الى حد غير مسبوق في كل أرجاء المملكة، وكانت بدورها تحبه بحرارةٍ فيها من البربرية ما يحيلها الى عشق ملتهب عنيف. مضت العلاقة بينهما بشكل سعيد طوال شهورٍ عديدة، حتى جاء اليوم الذي اكتشفها الملك، فلم يتردد أو يتوانى إزاء واجباته التي ذكرناها في البداية: زُج الفتى في السجن على الفور، وحُدد موعدُ محاكمته في حلبة الملك. كان هذا، بالطبع، حدثاً ذا أهميةٍ استثنائية، وكان جلالته، ومعه الناس كلهم، منشغلين بتفاصيل المحاكمة وتطوراتها. فلم تقع حالة مثل هذه من قبل، ولم يحدث قبل ذاك

أن تجرأ فرد عادي على أن يعشق ابنةَ ملكٍ. لقد أصبحت حالات كهذه أموراً طبيعية في اللاحق من الأعوام، لكنها كانت في وقتها غريبة ومريعة الى حدٍ بعيد.

بحثوا في أقفاص النمور في المملكة عن أكثر الوحوش قسوة وضراوة كي يختاروه لحلبة الملك. وقام قضاة أكفاء بمعاينة دقيقة لصفوف الصبايا والحسناوات من كل أنحاء المملكة لينتقوا للفتى عروساً مناسبة إذا ما رسم له القدر مصيراً مختلفاً. كان الجميع يعرفون أن الفعل الذي رُمي به المتهم قد حدث وانتهى. لقد عشق الأميرة، ولم يفكر، لا هو ولا هي ولا أي إنسان آخر في إنكار الحقيقة. لكن الملك لم يكن ليسمح لأية حقيقة من هذا القبيل بأن تعرقل إجراءات المحاكمة التي شارك فيها بسرورٍ واقتناع عظيمين. سيتم التخلص من الفتى بغض النظر عما ستؤول اليه القضية، وسيتمتع الملك بنشوةٍ أخلاقية في مراقبة سير الأحداث التي ستقرر إن كان الفتى قد أخطأ أم لا عندما سمح لنفسه بالوقوع في حب الأميرة.

حل اليوم الموعود. وتجمع القاصي والداني، وغصت بهم شرفات الحلبة العظيمة، والتصق الجمهور الذي لم يتح له الدخول بجدران الملعب الخارجية. واتخذ الملك وحاشيته أماكنهم قبالة البابين التوأمين، تلكما البوابتين المصريتين، الرهيبتين في التشابه بينهما.

كان الجميع على أهبة الاستعداد. وأعطيت الإشارة فانفتح باب تحت الحضرة الملكية، وتقدم عاشق الأميرة الى الحلبة. كان

طويلاً، جميلاً، وسيماً، فقوبل ظهوره بهمهمةٍ خافتة من الإعجاب والقلق. لم يكن نصف الجمهور يعرف أن شاباً بهذه الروعة يعيش بين ظهرانيهم. لا عجب إذن في أن تحبه الأميرة! ويا لمقتله من أمرٍ فظيع!

عندما توسط الفتى حلبة الميدان استدار، كما تقضي التقاليد، كي ينحني للملك، لكنه لم يكن يفكر بالحضرة الملكية؛ كانت عيناه مثبتتان على الأميرة التي جلست على يمين أبيها. كان من المحتمل ألا تكون حاضرةً في المكان لولا العِرق البربري الذي يسري في طباعها، فروحها المتقدة الشديدة لم تكن لتسمح لها أن تغيب عن مناسبة تهمها بهذا القدر الرهيب. ومنذ اللحظة التي صدرت فيها الإرادة الملكية بأن يقرر حبيبها مصيره في حلبة الملك، لم تفكر بشيء، في الليل أو في النهار، غير هذا الحدث العظيم وكل الأشخاص الذين لهم صلةً به. ولأنها تملك من السلطة والنفوذ وقوة الشخصية ما لم يملكه قبلاً أي ممن اهتموا بقضية مثل هذه فقد فعلت ما لم يفعله أحد قبلها: لقد عرفت سر البابين، عرفت في أي من الحجرتين القابعتين وراءهما ينتصب قفص النمر بواجهته المفتوحة، وفي أيهما تنتظر العروس.

كان من المستحيل أن يخرج من خلف البابين السميكين، المبطنين من الداخل بستائر جلدية ثخينة، أي صوت أو إشارة للشخص الذي يفترض به أن يتقدم ويرفع مزلاج واحدٍ منهما. لكن الذهب، وقوة إرادة النساء جاءا بالسر الى الأميرة. فلم تعرف فقط في أية حجرة تقف العروس المتألقة المتوردة من الخجل وقد

استعدت للخروج حالما ينفتح بابها، بل عرفت أيضا من تكون. إنها واحدة من أجمل وأحب آنسات البلاط، تلك التي اختيرت لتكون جائزة الفتى إذا بانت براءته من جريمة التطلع الى امرأةٍ بهذا العلو عن مقامه. كانت الأميرة تكره تلك المخلوقة الحسناء، فلطالما رأتها، أو خيل لها أنها رأتها وهي ترمي بنظرات الإعجاب على شخص حبيبها، بل شكّت أحيانا بأن الفتى قد لاحظ تلك النظرات أو حتى قابلها بالمثل. كانت تراهما بين الآونة والأخرى وهما يتبادلان الحديث، ولكن للحظة أو اثنتين. غير أن الكثير يمكن أن يقال في فسحة صغيرة. ربما كان حديثا في أمورٍ شديد التفاهة، ولكن ما أدراها؟ كانت فتاة محبوبة، لكنها تجرأت على رفع ناظريها الى حبيب الأميرة، ولذلك فإنها - وبكل ضراوة الدماء الهمجية التي انتقلت إليها عبر سلالة طويلة من أسلافها البرابرة المقدسين- حقدت على الفتاة التي كانت ترتعش وتحمر خجلاً وراء ذلك الباب الصامت.

عندما استدار حبيبها ونظر اليها، والتقت عيناه بعينيها، وهي تجلس هناك، أكثر شحوباً واصفراراً من كل ذلك البحر المتلاطم من الوجوه القلقة المتطلعة من حولها، أدرك بنفاذ البصيرة الذي لا يملكه إلا من وحّد الحب أرواحهم، أدرك أنها تعلم علم اليقين أي البابين يجثم خلفه النمر وأيهما تقف خلفه الفتاة. كان يتوقع منها أن تعرف ذلك. فقد كان يفهم طباعها، وكانت روحه مطمئّنة الى أنها لن تهدأ حتى تتفتح أمامها مغاليق السر الذي حُجب عن الجميع، وبضمنهم الملك نفسه. كان الأمل الوحيد الذي يحمل قدراً من

التأكيد يعتمد على نجاح الأميرة في اكتشاف السر، ولقد أدرك منذ اللحظة التي أبصرها فيها أنها نجحت، كما يعرف في قرارة قلبه.

ثم جاءت تلك النظرة القلقة العجلى التي ألقت السؤال «أيهما؟»

السؤال الذي وضح أمامها وكأن الفتى صرخ به من حيث يقف. لم يكن ثمة وقت لإضاعته؛ لقد ألقي السؤال في لمحة بصر ويجب الرد عليه في لمحة أخرى.

كانت ذراعها اليمنى ترتاح على حاجز الشرفة الوثير أمامها. رفعت يدها وأرسلت إشارة طفيفة خاطفة نحو اليمين. لم يرها أحد سوى حبيبها، فكل العيون سوى عينيه كانت مسمّرة على الرجل الذي في الحلبة.

استدار الفتى وعبر المسافة الخالية بخطوات واثقة سريعة. وتوقفت كل القلوب، وحُبست الأنفاس، وتسمرت كل العيون عليه. ودون أدنى تردد مضى نحو الباب الأيمن وفتحه.

والآن، فإن النقطة الأساسية في حكايتنا هي: هل خرج النمر من الباب؟ أم خرجت العروس؟

كلما تفكرنا في السؤال كلما تعسرت الإجابة عليه. فهي تتضمن دراسة القلب الإنساني الذي يقودنا خلال متاهات العاطفة الملتوية التي يصعب علينا إيجاد مخارجها. فكر في ذلك أيها القارئ المنصف، ليس كما لو كان القرار قرارك، بل قرار تلك الأميرة شبه البربرية، حامية الطباع، التي تتقلب روحها الهائجة بين نار اليأس ونار الغيرة. لقد خسرته الى الأبد، ولكن من الذي سيأخذه منها؟

كم مرة، في ساعات يقظتها أو في طيات أحلامها، أجفلت وقد جرفها رعب وحشي، ثم غطت وجهها بيديها وهي تفكر بحبيبها وهو يفتح الباب الذي تنتظر وراءه مخالب النمر التي لا تعرف الرحمة!

وكم وكم مرة رأته عند الباب الآخر!

كم، في أحلام يقظتها الأليمة الموجعة، صرّت على أسنانها ومزقت شعرها وهي تراه يثب في فرح عظيم إذ يفتح باب العروس! كم تلظت روحها وهي تراه يندفع لملاقاة تلك المرأة الأخرى، بخدودها المتوردة وعينيها اللتين تقدحان بفرحة النصر وهي تراه يقودها خارجا وقد توهج كيانه بفرحة العودة الى الحياة. وهي تسمع صيحات الفرح التي تطلقها الجماهير، وضربات النواقيس المجلجلة السعيدة. وهي ترى الكاهن، وفي أثره أتباعه المبتهجين، يتقدم نحوهما ليعلن زواجهما أمام ناظريهما. ثم وهي تراهما يمضيان معاً فوق الطريق المفروش بالزهور، تحف بهما صيحات الحشود الصاخبة الجذلى التي تضيع وتغرق فيها صرختها اليائسة الوحيدة!

أليس من الأفضل له أن يموت من فوره، ليكون في انتظارها في أقاليم الحياة الأخرى شبه البربرية؟

ولكن ماذا عن ذلك النمر المخيف، تلك الصرخات، وتلك الدماء!

لقد بينتْ جوابها في لحظة خاطفة، لكنه كان حصيلة أيام وليالٍ من التفكير المبرِّح. كانت تعلم أنها سوف تُسأل، ولقد قررت نوع

إجابتها، وأشارت بيدها دون بصيص من التردد نحو اليمين!

إن قرارها ليس بالمسألة التي يجوز الاستخفاف بها، ولستُ أنا من يتجرأ على وضع نفسي موضع القادر على الإجابة. لذلك سأترك السؤال في عهدتكم.

نرى من خرج من الباب المفتوح: العروس أم النمر؟

الرجل الذي عرف كيف يطير
كارل تشابك[1]

(1) ولد الكاتب التشيكوسلوفاكي كارل تشابك Karel Capek في عام 1890 في مقاطعة بوهيميا الخاضعة آنذاك للإمبراطورية النمساوية-الهنغارية. درس الفلسفة في براغ وبرلين وباريس بين 1909-1915، وعمل بعد حصوله على الدكتوراه أمين مكتبة عامة ثم مدرساً خاصاً ثم صحفياً. كتب بأسلوبه الذكي الساخر في مختلف المواضيع وعرفت كتاباته (التي تعد من أفضل ما كُتب باللغة التشيكية) بوصفها الممتع والدقيق للواقع، لكنه نال شهرته الأكبر لكونه أحد الرواد الكبار المؤسسين لأدب الخيال العلمي وذلك قبل أن يتم الاعتراف به كجنس أدبي مستقل، غير أن كتاباته اتسمت بتركيزها لا على المغامرات وقصص الرحلات الفضائية الشائعة بل على الآفاق والبدائل المحتملة للتطور الاجتماعي والإنساني على الأرض، وهو بهذا يصنف مع جورج أورويل وألدوس هكسلي كأحد «الكتاب التأمليين». وتناقش أعماله الجوانب الأخلاقية والاجتماعية للمخترعات الثورية والتحولات العلمية التي ظهرت أو كانت متوقعة خلال النصف الأول من القرن العشرين ومنها الانتاج الآلي الواسع النطاق والأسلحة النووية والذكاء الاصطناعي (يعده المؤرخون أول من أوجد مصطلح الروبوت المشتق من اللغة التشيكية القديمة رغم أنه شخصيا عزا الفضل فيه الى أخيه الفنان والكاتب جوزيف تشابك الذي أعدم لاحقاً في معسكرات الموت النازية)

تتميز كتابات تشابك رغم بساطتها الظاهرية بكشفها المعمق لنفسية الانسان والمجتمع البشري بصورة عامة وخاصة في مواجهة التغيرات أو التجارب غير المألوفة (كما في قصتنا هذه) وهو يعبر في الكثير من أعماله عن خشيته من العنف والدكتاتورية والقوة المفرطة للحكومات الشمولية والشركات الكبرى وعلاقة كل ذلك بمصير الانسان العادي وأحلامه في الحرية والأمن والجمال. كتب تشابك في العديد من الحقول الأخرى مثل القصة البوليسية والرواية وقصص الأطفال الخيالية والمسرح والفلسفة وعلم المعرفة وحتى في فن البستنة! وخلال الثلاثينات ركز على التهديد الوحشي الذي مثلته النازية والفاشية واشتهر بعلاقته الشخصية الوثيقة بعالم الاجتماع والفيلسوف التشيكي توماس ماساريك الذي أسس وترأس الجمهورية التشيكوسلوفاكية الأولى (1918-1938)، مما جعل دوائر الجستابو تعده ثاني أخطر عدوٍ لها. لكن المرض سبقها الى قتله إذ توفي في الخامس والعشرين من ديسمبر 1938 بعد أيام قلائل من احتلال النازيين لبلاده.

كان السيد «توماتشيك» يسير في طريقه الذي ينعطف حول مستشفى «فوينُهرادِ». لقد اعتاد على مثل هذه النزهة لكي يحافظ على لياقته وقوامه، فقد كانت صحته، والحق يقال، أعز على قلبه من كل شيء سواها، وهو، علاوة على ذلك، مشجع رياضي مخلص، ومشاهد متحمس لمباريات الدوري الوطني لكرة القدم.

كان في تلك الساعة من الغسق الربيعي، يخطو بخفة ونشاط ويقع نظره بين الفينة والأخرى على زوج من العشاق أو على أحد القادمين من «ستراشنيدزه

"كان علي أن أشتري جهازاً لِعَدِّ الخطوات» هكذا قال في نفسه «لكي أعرف عدد الخطوات التي أقطعها كل يوم

وتذكر فجأةً بأنها الليلة الثالثة على التوالي التي يرى فيها الحلم نفسه دون تغيير: إنه ليمشي على جادة الشارع، تعترض خط سيره امرأة تدفع عربة أطفال، فيقفز قفزة صغيرة دافعاً قدمه اليسرى، فإذا به يرتفع في التو الى علو عشرة أقدام! ثم يطير فوق المرأة وعربتها ويحط على الأرض بعد أن يحلِّقَ في خيلاء. لم يكن الأمر، كما بدا له، بحاجة الى تفسير، وكان يغمره ببهجةٍ لا توصف، ورغم هذا فقد كان من السخف أن أحداً، قبله، لم يجرب القيام به؛ فما من شيء أسهل: يكفي أن يحرك قدميه قليلاً، كما لو كان يركب دراجة هوائية، كيما يرتفع من جديد، ليخترق الهواء على ارتفاع طابق واحد ثم يعود الى الأرض في دعةٍ واسترخاء. تكفيه قفزة خفيفة.. وهاهو محلق دون عناء. لم يكن في حاجة الى أن يلامس الأرض، كل ما يلزمه هو أن يحرك رجليه ليواصل الطيران.

في هــذا الحلــم كان الســيد توماتشــيك يندفــع ضاحــكاً بصــوت مرتفــع مــن حقيقــة ان أحــداً غــيره لم يكتتشــف حتــى الآن هــذه الحيلــة البســيطة. إنهــا، كــما أدرك الســيد توماتشــيك في حلمــه، لأســهل مــن المــشي وأكثــر منــه قربــاً الى الفطــرة.

"غــداً، حــين أقــوم مــن نومــي، عــلي أن أجــرب القيــام بالأمــر مــرة أخــرى

لثــلاث ليــال متعاقبــات، كان يــرى الحلــم نفســه، وإنــه لحلــمٌ جميــل حقــاً؛ لقــد كان ينتابــه إحســاس بــأن جســده قــد فقــد وزنــه تمامــاً.

كــم كان رائعــاً لــو أمكــن للمــرء أن يطــير دون عنــاء: بمجــرد أن يقفــز قفــزة صغــيرة. نظــر الســيد توماتشــيك حواليــه؛ لا يوجــد مــن يســير خلفــه. شرع بقليــل مــن الهرولــة، عــلى ســبيل المــزاح لا غــير، كــما لــو كان يــروم القفــز فــوق بركــة مــاء صغــيرة، فــإذا بــه يرتفــع مــن فــوره الى علــو عــشرة أقــدام ويحلــق فــوق الأرض في دورة لطيفــة. لم يندهــش قــط؛ فقــد بــدا الأمــر طبيعيــاً لا لبــس فيــه، لم يشــعر إلا بإحســاس مــن الإثــارة اللذيــذة تشــبه مــا يعــتري مــن يركــب دوامــة في مدينــة ألعــاب، حتــى أن الســيد توماتشــيك كاد يطلــق صيحــة ابتهــاج طفــولي، لكنــه، وبعــد مائــة قــدم، دنــا ممــا تبــين أنهــا أرض مليئــة بالوحــل، فحــرك ســاقية مــن جديــد كــما كان يفعــل بالضبــط في حلمــه، فأقلــع عــلى الفــور ثــم عــاد ليهبــط ويحــط عــلى الأرض، في خفــة ودون أدنــى ارتعاشــة، عــلى بعــد خمســين قدمــاً تقريبــاً، خلــف رجــل كان يجرجــر قدميــه في وجــوم صــوب " ستراشــنيدزه « حــدق بــه الرجــل مرتابــاً؛ كان كــما يبــدو يكــره أن يتبعــه أحــد دون أن يســمع وقــع أقدامــه. اجتــازه الســيد توماتشــيك،

باذلاً قصارى جهده كي لا يثير مزيداً من الشك، حتى أنه خشي من المبالغة في الإسراع لئلا يضطر الى القفز فيطير من جديد.

علي أن أجرب هذا بطريقة صحيحة، قال السيد توماتشيك لنفسه، ثم انعطف ليتخذ الطريق المهجور ذاته رجوعا الى بيته، ولكن، كما لو كانت ثمة مؤامرة مقصودة ضده، ظل يلتقي كل هنيهة بأزواج من العشاق أو بعمال القطار الغادين والرائحين، فلم ير بداً من الانعطاف نحو طريق جانبي يقود الى بقعة مهجورة كانت تستخدم مكباً للنفايات. كان الظلام قد حل، لكن السيد توماتشيك، وقد خشي من أن ينسى مهاراته مع الغد، قفز هذه المرة بشيء من التردد؛ فارتفع ثلاثة أقدام ثم حط على الأرض بطريقة خرقاء بعض الشيء. ثم جرب الأمر ثانية مستخدماً كلتا يديه كما يفعل السابح، فطار هذه المرة مسافة مائتين وخمسين قدما ودار نصف دورة ثم لامس الأرض برقة ولا رقة الفراشات! كان يريد أن يجرب للمرة الثالثة، ولكن، وفي تلك اللحظة بالذات غمره شعاع من الضياء القوي وصاح به صوت خشن:

"ما الذي تفعله هنا؟"

كانت دورية الشرطة. فتمتم السيد توماتشيك في هلعٍ وقد صدمته المفاجأة:

"أنا أمارس الرياضة"

"حسناً إذن، كن عاقلاً وانقلع الى مكانٍ آخر تمارس فيه رياضتك» أجاب الشرطي محنقاً «ولكن ليس هنا.. مفهوم؟"

لم يفهم السيد توماتشيك تماماً لماذا يسمح له بالتمرن في كل

مكان إلا هذا، لكنه، وهو المواطن المطيع للقانون، تمنى للضابط ليلة سعيدة وغادر مسرعاً وقد اعترته خشية من أن يحلق دون إرادة منه، الأمر الذي قد يثير شكوك ضابط الشرطة. لكنه لم يعمد الى القفز في الهواء من جديد إلا عندما وصل الى المعهد الصحي الوطني. ارتفع فوق الأسلاك الشائكة واستخدم يديه ليخترق حديقة المعهد من الطرف الى الطرف ثم يقطع شارع «التاج» برمته قبل أن يحط قريباً من خادمة صغيرة تحمل في يدها ابريقا من الجعة فإذا بالفتاة تطلق صيحةَ خوف وتلوذ بالفرار.

قدّر السيد توماتشيك المسافة التي قطعها بستمائة قدم، وعدّها بداية حسنة. في الأيام التالية انغمس بجد واجتهاد في تمارينه على الطيران، في الليل فقط وفي أماكن مهجورة بالطبع، في رقعة مجاورة لمقبرة اليهود على وجه التحديد، غير بعيد عن «أولشاني». فجرب العديد من الطرق المختلفة: مثل الإقلاع بعد الجري السريع، أو الإقلاع العمودي من حيث يقف. فصار قادراً، دون أية صعوبة وبمجرد أن يرفس الأرض برجليه، على الصعود مسافة ثلاثمئة متر، لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة على تخطي هذا الارتفاع. ثم جرب طرقاً مختلفة للهبوط، مثل الهبوط المتدرج اللطيف أو النزول الحاد البطيء، وكل ذلك بمساعدة يديه .وتعلم أيضاً كيف يتحكم بسرعته ويغير اتجاهه وهو يطير، وتعلم أيضاً أن يطير عكس الريح، أو وهو يحمل ثقلاً في يده، وأن يعلو وينخفض كلما عنَّ له ذلك ..الخ.

كل شيء كان أسهل ما يكون، وصار السيد توماتشيك يزداد

حيرة لأن الناس لم يكتشفوا هذا حتى الآن؛ إذ لم يسبق لأحد، كما هو واضح، أن جرب القفز ثم الطيران. في إحدى المرات ظل في الهواء لسبع عشرة دقيقة برمَّتها قبل أن يعلق بخطوط الهاتف ويقرر النزول. وفي إحدى الليالي جرب أن يطير على طول شارع روسيا؛ فطار على ارتفاع اثني عشر قدماً، وعندما لاحظ خلفه جلي شرطة أسرع بالانعطاف نحو حدائق أحد الأحياء الثرية، سمع وهو يطير أصوات صافرات الشرطة الحادة وهي تخترق هدوء الليل، فعاد الى نفس المكان ولكن مشياً على الأقدام فرأى ستة من رجال الشرطة وهم يمشطون الحديقة مستعينين بالمصابيح اليدوية، وعرف منهم أنهم يتعقبون لصاً كان يتسلق السياج.

هنا فقط أدرك السيد توماتشيك المنافع الهائلة لقدرته على الطيران، رغم أن فكرة عملية بعينها لم تخطر بباله. وفي إحدى الليالي أغرته نافذة مفتوحة في الطابق الثالث من بناية في ساحة «ميلوفكوفتش» فبلغها بعد قفزة خفيفة، وجلس على حافة النافذة، ولم يعرف خطوته التالية. سمع صوت أحدهم، وكان واضحاً أنه يغط في نوم عميقٍ صاخب. تسلل الى الغرفة، لكنه، وقد خلا ذهنه من أية نية للسرقة، ظل واقفاً هناك، يملؤه شعور بالضيق والحرج مثل ذاك الذي يحسه من يجد نفسه في بيتٍ غريب. تنهد السيد توماتشيك وعاد الى النافذة، لكنه فكر بأن يترك وراءه علامةً تشهد بإنجازه الرياضي، فاستل ورقة من جيبه وكتب عليها بقلم الرصاص: لقد كنتُ هنا!!.. المنتقِم إكس!!

وضع الورقة على المنضدة الجانبية لسرير الرجل وقفز دون

ضجيج من الطابق الثالث .ولم يدرك، إلا حين وصل البيت، بأن تلك الورقة لم تكن غير ظرف عليه عنوانه، لكنه لم يجد في نفسه الشجاعة على العودة لاستردادها. وظل لأيام عدة في حالة من القلق الفظيع خشية أن تتدخل الشرطة وتحقق بالأمر، لكن ما أثار دهشته أن شيئاً من هذا لم يحدث.

لكن إحساساً جديداً ما لبث أن انتاب السيد توماتشيك، إذ شعر بأنه لم يعد يستطيع الاستمرار في إطلاق العنان لهوايته السرية هذه في معزل عن مشاركة الآخرين، لكنه لم يكن يمتلك أدنى فكرة عن كيفية تقديم اكتشافه الى الجمهور العريض.. ما أسهل الأمر لو يعرفون! كل ما عليهم فعله هو أن يقفزوا ويحركوا أيديهم قليلاً كي يحلقوا مثل الطيور. ربما كان حقل رياضي جديد يوشك على الظهور، أو ربما سيكون ممكناً تسهيل حركة المرور في الشوارع لو أن الناس طاروا بدلاً من أن يسيروا على أقدامهم. ولن يكون تركيب المصاعد في البنايات العالية من الأمور الضرورية. إنه، وباختصار، اكتشاف عظيم الأهمية والنفع. صحيح أن السيد توماتشيك لم يكن متأكداً تماماً من مسار الأمور، لكنه واثق بأنها ستأخذ في النهاية مسارها الصحيح، فكل اكتشاف عظيم لم يكن في البداية غير لعبة صغيرة.

في البناية التي يعيش فيها السيد توماتشيك يقطن جار شابٌ بدين يدعى «ويتا "يعمل في إحدى الصحف. نعم، كان محرراً لعمود رياضي أو شيء من هذا القبيل .قرر السيد توماتشيك أن يزور «الأستاذ ويتا»، وبعد قليل من اللف والدوران أوضح له

أن هنـاك شـيئاً مهـما يـود أن يريـه إيـاه. لم يكـن راغبـاً في إفشـاء سره دون مقدمـات، وكان السـيد «ويتـا» بـدوره يظـن بأنـه يتعامـل مـع شـخص غريـب الأطـوار .لكنـه، وبعـد كثـير مـن التوسـلات ومحـاولات الإقنـاع تنـازل ووافـق عـلى المـضي معـه الى مقـبرة اليهـود في تمـام التاسـعة مسـاءً.

"حسناً. راقبني أيها السيد المحرر

قـال السـيد توماتشـيك وقفـز، وارتفـع عـن الأرض الى خمسـة عـشر قدمـاً تقريبـاً، حيـث أدى بعـض الحـركات، ونـزل الى الأرض ثانيـة ثـم عـاد وارتفـع وهـو يخفـق ذراعيـة في نشـاط حتـى أنـه لبـث محومـاً في مكانـه قـي الهـواء لثـماني ثـوانٍ تمامـاً. اكتسـى السـيد ويتـا ملامـح الجـد المفـرط وشرع بمراقبـة حـركات السـيد توماتشـيك بـكل اهتـمام فـشرح لـه الأخـير كل شيء بصـبر وأنـاة:

"تكفيـك قفـزة صغـيرة لتجـد نفسـك في الهـواء، كلا، ليـس في الأمـر أي نـوع مـن الروحانيـات ولا حاجـة بـه الى أيـة قـوى خارقـة. حتـى قـوة الإرادة أو القـوة العضليـة لا لـزوم لهـما هنـا، مـا عليـك إلا أن تقفـز وتطـير، جـرب بنفسـك أيهـا السـيد المحـرر

تضرع اليه. لكن السيد ويتا اكتفى بهز رأسه:

"لا بـد أن في الأمـر خدعـة مـا» فكـر بصـوت عـال، وأضـاف بوضـوح وتصميـم «سـأصل الى كنـه الأمـر» ثـم طلـب مـن السـيد توماتشـيك أن يبقـى السر بينهـما في هـذه المرحلـة.

في اليـوم التـالي أرغـم السـيد توماتشـيك عـلى الطـيران بحضـور السـيد ويتـا حامـلاً في كل واحـدة مـن يديـه ثقـلاً يـزن عـشرة أرطـال. لم يكـن الأداء حسـناً هـذه المـرة، إذ لم يعـلُ السـيد توماتشيك بأكثـر مـن

عـشرة أقـدام، بيـد أنـه كان راضيـاً بذلـك. بعـد الطـيران الثالـث قـال السـيد ويتـا:

"حسـناً، أصـغِ إليّ يـا سـيد توماتشـيك، أنـا لا أريـد إقلاقـك، لكـن هـذا أمـر عـلى قـدر كبـير مـن الأهميـة والجديـة. إن الطـيران البـشري ذا الدفـع الـذاتي اكتشـاف ذو فائـدةٍ هائلـة. في الدفـاع عـن أرض الوطـن، عـلى سبيل المثـال، مفهـوم؟ وعليـه يجـب التعامـل مـع هـذه القضيـة بطريقـة احترافيـة. أنـت تعـرف يـا سـيد توماتشـيك.. أرى أن عليـك أن توضـح مقدرتـك هـذه أمـام الخـبراء المختصـين. سـأتولى أنـا ترتيـب الأمـر

وهكـذا، كان السـيد توماتشـيك يقـف بعـد أيـام، مرتديـاً سراويلـه الرياضيـة القصـار، قبالـة لجنـة مـن أربعـة سـادة محترمـين. جـرى الاجتـماع في سـاحة المعهـد القومـي للتربيـة الرياضيـة. وكان السـيد توماتشـيك يشـعر بالخجـل مـن عريـه. كان قلقـاً ويرتجـف مـن الـبرد، لكـن السـيد ويتـا لم يلـن أو يتنـازل عـن رأيـه القاطـع في أن يجـرى التمريـن بالسراويـل القصـار كـي يـرى الجميـع كيـف يؤديـه. كان أحـد السـادة، وهـو رجـل أصلـع مفتـول العضـلات، يـترأس اللجنة عـلى مـا يبـدو، وكان تعبـير وجهـه يوحـي بـأن الأمـر برمتـه كان في رأيـه عديـم المعنـى، حتـى أن أنفـه، هـو الآخـر، كان يـشي بأنـه يعـد هـذا التمريـن، مـن الناحيـة العلميـة، سـخفاً مطبقـاً.

ألقى نظـرة خاطفـة برمـة عـلى سـاعته ثـم نخـر بصـوت يشـبه صوت الخنزير

يا سيد توماتشيك.. أوضح لنا الأمر بقفزةٍ منك"

صار السيد ويتا في قمة الإثارة، أما السيد توماتشيك، وقد أجفله الصوت، فقد ركض خطوتين لكنه توقف حين صاح به الخبير:

"لحظة واحدة. قفزتك سيئة جدا. عليك أن تنقل وزن جسمك الى قدمك اليسرى. مفهوم؟ أعد المحاولة!»

جرّب السيد توماتشيك مرة ثانية، محاولاً أن ينقل وزنه الى القدم اليسرى، لكن الخبير تفضل عليه بمعلوماته القيمة:

"ويداك يا سيدي. ليست لديك أدنى فكرة عما تفعله بيديك. عليك أن تبقي ذراعيك في وضعٍ يتيح لك توسيع صدرك. وقبل هذا وذاك، لقد حبست أنفاسك خلال القفز، وهذا أمر لا يجوز لك فعله. عليك أن تتنفس بعمق. استرخِ. أعد رجاءً"!

ارتبك السيد توماتشيك، إذ لم يعد قادراً على معرفة ما يفعل بذراعيه أو كيفية التنفس الصحيح. فتململ وأخذ يبحث عن مركز ثقل جسمه.

"الآن!» صاح السيد ويتا.

تأرجح السيد توماتشيك مثل رقاص الساعة وانطلق راكضاً، لكن، وفي اللحظة التي أوشك فيها على الإقلاع، صاح الخبير من بين فكيه:

"سيئ! توقف!»

حاول السيد توماتشيك أن يتوقف، لكن دون نجاح، فقفز قفزة ضعيفة وطار الى ارتفاع ثلاثة أقدام، لكنه، وقد أراد أن يطيع الأمر، ارتمى عائداً الى الأرض وظل واقفاً في مكانه.

"سيئ جداً. سيئ للغاية» صرخ الخبير «عليك أن تحني جسمك نحو وضعية الجثوم! ألقِ بثقلك على رؤوس أصابعك وتأرجح مثل النابض! ثم ادفع ذراعيك الى الأمام، مفهوم؟ يداك يا سيدي هما، في النهاية، من يحملان عزم القصور الذاتي. تلك حركة فيزيائية طبيعية. انتظر» قال الخبير «سأريك كيف تقفز. راقبني جيداً»

ونزع سترته ورماها وتقدم نحو خط البداية «انتبه رجاءٍ يا سيدي. إن مركز الكتلة يقع على القدم اليسرى، أسحب رجلي فينحني الجسم الى الأمام، أما مرفقاي فأبقيهما الى الوراء. كي أوسع قفصي الصدري. الآن افعل كما فعلتُ أنا!»

قلد السيد توماتشيك حركاته بعينها. لم يسبق له أبداً أن شعر بمثل هذا الصغار والضيق.

"عليك أن تتدرب» قال الخبير «والآن أنظر! سأثب على قدمي اليسرى ثم أنطلق» وقفز الخبير وركض لستة خطوات محركاً يديه في دائرة جميلة ثم انحنى بأناقة الى وضع الجثوم، وقد مد ذراعيه الى الأمام «هذه هي الطريقة الصحيحة» واصل حديثه وسحب سرواله الى الأعلى ثم أضاف «افعل تماماً مثلما فعلتُ أنا"!

وألقى السيد توماتشيك نظرةً ملتاعةً بائسة على السيد ويتا ولسان حاله يقول «هل هذا ضروري حقاً"

"مرة أخرى» قال السيد ويتا، فتلوى السيد توماتشيك لينفذ الأمر «الآن!» وتشابكت ساقاه وقفز على قدمه اليسرى «ربما يتغاضون عن هذا، شريطة أن أجثم وأمد ذراعيَّ» فكر وهو

يركض. لقد أغفل الوثبة الأولية الصغيرة تقريباً وبدلاً من ذلك أسرع بالقفز «ما عليّ إلا أن أجثم بصورة صحيحة» ومضت الفكرة كالبرق في رأسه، وقفز هذه المرة الى ارتفاع قدمين فقط ثم سقط على الأرض على بعد خمسة أقدام. ثم أسرع بالتحول الى وضعية الجثوم ومد ذراعيه الى الأمام.

"ولكن يا سيد توماتشيك» صاح السيد ويتا «أنت لم تطر قط! أرجوك.. أعد المحاولة"!

ووثب السيد توماتشيك من جديد. وقفز الى مسافة خمسة أقدام، لكنه نزل وقد اتخذ وضع الجثوم وتذكر أن يباعد ما بين ذراعيه! وغرق في عرق الخزي وكان قلبه يخفق بشدة وحدث نفسه في يأسٍ عظيم «يا إلهي، لمَ لا يتركوني وشأني كي أوليَّ من هذا المكان؟» في ذلك اليوم قفز السيد توماتشيك مرتين أخريين، لكنه اضطر الى التوقف عن المحاولات التالية...

وهكذا.. ومنذ ذلك اليوم.. لم يعد السيد توماتشوك.. يعرف.. كيف.. يطير!

التجربة
إراكلي لوموري[1]

في الصباح الباكر رنّ جرس الهاتف. كان «كوجي» يغط في نومٍ عميقٍ لا ينوي الاستيقاظ منه، لكن الهاتف واصل الرنين فاضطر الى النهوض والرد عليه. بذل قصارى جهده ليعود الى وعيه ويفهم ما يسمع. هناك شخصٌ ما يُدعى «تيمو» يدعوه الى حفلِ زواجٍ لشخصٍ آخر يدعى «جينا» يقام في ضاحية «كوجوري» خارج «تبليسي».

واختلطت الأمور على «كوجي»: أي «تيمو»؟ وعن أي «جينا» يتحدث؟ وما علاقة «كوجي» بكل ذلك؟

ولكن، وبعد أن أجهد فكره قليلاً، فهم، أو بالأحرى تذكر، كلاً من «تيمو» و «جينا»؛ لقد كان هذان زميليه أيام الدراسة. بيد أنه، وبالرغم من تذكره إياهما، ظل عاجزاً عن فهم أي شيء؛ إذ لم يسبق أن ربطته بهما أية صداقة حميمة. وكان يعتقد على الدوام أنهما يستخفان به. وها قد مضت خمسة أعوام منذ أن تخرجوا جميعا ولم يلتقوا منذ ذلك الحين، حتى أن أحداً منهما لم يكلف نفسه عناء تذكره ولو مرةً واحدة. والآن، يفاجَأ بدعوةٍ كهذه؟

---

(1) إراكلي لوموري Irakli Lomouri كاتب جورجي. ولد في تبليسي عام 1959 تخصص في الدراسات الشرقية (التاريخ الإيراني). وعمل لفترات متقطعة في التعليم والصحافة الأدبية والكتابة السينمائية. نشر أولى قصصه القصيرة (إذا) عام 1982 يمتاز بصوره الغرائبية وبأسلوبه الساحر الذي يركز على تناقضات الحياة والسلوك الإنساني المنافي للعقل

واستعاد «كوجي» صوابه أخيراً، واستنتج أن زملاءه القدامى كانوا يكنّون له الاحترام فعلاً، بالرغم من أنهم ظلوا محافظين على المسافة ما بينه وبينهم، ولا بد أن سهمه قد صعد بينهم الآن لسببٍ ما. لم يستطع العثور على تفسيرٍ ثانٍ. وارتفعت معنويات «كوجي» لأن مثل هذه الإلتفاتة قد داعبت غروره.

-» وإذن أنا في نهاية الأمر لستُ ذلك النكرة!»

لم يكن «كوجي» قد أكمل ارتداء ثيابه حين داهمه «تيمو» وهجم عليه كالنمر، يحتضنه ويقبله هنا وهناك ثم يجره الى الشارع جراً.

-»لن تتصور مقدار تشوقنا إليك! يجب أن تأتي معنا في الحال. لا، لن نقبل أية أعذار! نحن نتحرق شوقا لرؤيتك، يا صديق الصبا، يا من أضحكَنا كثيراً! لسوف تستمتع حقاً! لقد طلب مني «جينا» أن آتي لاصطحابك»

كان في سلوك «تيمو» ضربٌ من الغرابة، وبدا عليه التوتر. مضى الاثنان الى السوق واقتنيا باقة من الأزهار ثم عددا من قناني الشمبانيا من احد الأكشاك الحقيرة. وظل «تيمو» يثرثر دون انقطاع ويلوك قصصا في غاية السخف ثم يروح يضحك عليها، ويتذكر أيام طفولته وسنوات الدراسة، ويتحدث في نشوةٍ غامرةٍ عن «إيكا» عروس «جينا» ويصف جمالها الخارق وذكاءها وسجاياها الرائعة، وكيف بدأت العلاقة بينها وبين «جينا» منذ العام الأول للدراسة الجامعية حين تقدم الاثنان الى قسم علم النفس، ثم الحب الكبير الذي جمع بينهما، وكيف وقف الآباء الأغبياء في طريق سعادتهما،

وكيف فرّا الى «كوجوري» وكيف رفض أهلوهما أن يستقبلاهما، وكيف أن الأصدقاء قرروا إقامة حفل الزفاف المتواضع هذا.

وأخذ «كوجي» يتطلع من نافذة الحافلة وهو يبتسم كالأبله الذي يتوقع حدثاً سعيداً، ويستشعر البرودة المحببة لقناني الشمبانيا في حضنه.

-»يا للروعة!» كان يفكر مع نفسه.

لم يستغرق الطريق الى «كوجوري» أكثر من ثلاث دقائق، أو هذا ما خُيل الى «كوجي». كانت بضع سيارات تقف خارج بناية كبيرة ذات طابقين وثمة صبية وصبايا ينعمون بالجمال والعافية والأناقة يشوون اللحم في ساحةٍ صغيرةٍ كستها أوراق الأشجار الصفراء.

هذا الهدوء غير المألوف، وهذه الأشجار الزاهية، وتلك الوجوه اللطيفة غمرت «كوجي» بأحاسيس رقيقة جيّاشة، فأدرك الآن أنه يحب العالم بأسره.

-»أية روعة!» واصل التفكير.

في الداخل التقى بزملائه القدامى في المدرسة، واستقبله الجميع بالود والترحاب. استفسروا عن أحواله، وتحسروا على الأمس الغابر الجميل الذي ولّى سريعاً واشتكوا من قلة الوقت الذي لا يسمح لهم باللقاء إلا لماماً. وطفق الجميع يردد:

-» ألم تكن تلك أياماً طيبة؟»

ونسي «كوجي» تماماً أنه لم يحدث أن جمعته بهؤلاء أيّة صداقة حقّة، وأنه كان على الدوام يمقت المدرسة أيما مقت.

لم تقع عيناه على «جينا» و «إيكا» فاستنتج أن عملاً مهما اقتضى

منهما الخروج. وفي هذه الأثناء كانت المائدة قد أعدت من أجل 25-20 ضيفا من الشباب الذين أفرغوا العديد من القناني في انتظار قدوم العروسين اللذين تأخرا في الوصول.

وأخيرا صاح أحدهم. «ها قد وصلا!»

وهبّ الجميع واقفين، ورمى «تيمو» باقة الزهر بين يدي «كوجي» وانفتح الباب على مصراعيه، وظهر العريس والعروس.

وفجأةً فقدت كل الأشياء ملامحها في ناظريه وغامت في ضبابٍ كثيف. ثم انجرفت مولية الى حيث لا يعلم. وكأنها كانت انعكاسا في حزمةٍ من الضوء هائلة، ارتعشت ثم ذابت في الأثير. وغابت الكائنات جميعاً: الهواء والضياء والجدران والناس.

وتوقف الزمن.

لقد كانت العروس رجلاً!

«إيكا» كانت رجلاً!

رجلاً مربوعاً، بلحيةٍ وشاربين، في فستانٍ طويل أبيض.

وأوشك «كوجي» على الإغماء، وكاد الجنون يعتريه، ولم يستطع أن يصدّق عينيه.

وتفجر شيءٌ ما في رأسه مثل مليون ميغاطن من المتفجرات! وانقضت مليون مليون سنةٍ قبل أن يطلع عليه النور: إنه يحلم!

وشعر ببعض التحسن، وتحرك الزمن من جديد. ونجح أخيراً في انتزاع عينيه بعيداً عن العروس -البيضاء كالثلج- ثم أحس بأن هناك من ينخسه من الخلف.

-»هيا، اذهب وهنئ العروسين!»

كان ذلك صوت «تيمو» بالتأكيد. أما الباقون فقد اندفعوا صوبهما بالفعل وأحاطوا بهما معانقين ضاحكين كما لو أن شيئاً لم يحدث. وفرقعت قناني «الشمبانيا» هنا وهناك، وتكلّف «كوجي» مشقة هائلة ليخطو خطوتين ويتمتم ببعض الألفاظ، فعانقه «جينا» وقبّله في الخدّين، ومدّت «العروس» يدها «يده؟» فتبيّنها شائكة معروقة.

غاص كوجي» في أحد المقاعد وقد لفّه الذهول، وعض على شفتيه بكل ما أوتي من قوة. ولكنه أدرك -حتى دون أن يفعل ذلك- أنه لم يكن يحلم. إنها الحقيقة بعينها. وتفكَّر في وجوم:

-»إما إنني مجنون تماماً أو إن العالم من حولي هو المجنون!»

وهمس «تيمو» في أذنه:

-» ما رأيك؟ أو ليست حسناء؟»

فهز «كوجي» رأسه.

كانت الوليمة في أوجها، وطفق المحتفلون، بعد أن أجهزوا على «الشمبانيا» يفتحون قناني النبيذ وينشدون أناشيد الاحتفاء بالزوجين العتيدين ويرجون لهما الرخاء والهناء!

-»واحرصا على قدوم ولي العهد في غضون تسعة أشهر!»

واظب «كوجي» على إتراع كأسه وهو خاوي الرأس، وصار بعد خمس عشرة دقيقة ثملاً تماماً فاستعاد قدرته على التفكير. واعترته فجأة رغبة عارمة في النهوض والجهر بالحقيقة بأعلى صوته، وأصبح الآن متحفزاً ومستعداً لفعل ذلك في أية لحظة،

غير أنه لم يحرك ساكناً، واقتنع بالتدريج بأنه سيموت إذا لم يصرخ بالحقيقة في التو والساعة.

واصل الحاضرون المرح بينما كانت العروس تنهش في لذّةٍ غامرةٍ ساق دجاجة أمسكتها بيد ملفوفةٍ في قفّازٍ أبيض نقّعه النبيذ الأحمر وراح «كوجي» يستعرض الضيوف فلم يلحظ في البدء أي شيء خارج عن المألوف، لكنه سرعان ما انتبه الى تعابير الضياع التي ارتسمت على أوجه أربعةٍ منهم فشعر ببعض التحسن وقال لنفسه.

-»وهكذا فأنا لست الوحيد»

-»استميحك العذر، هل أنت على معرفةٍ وثيقةٍ بـ إيكا؟» سأل واحداً من الأربعة.

-»لا، لست كذلك. لماذا تسأل؟»

-»هل تعجبك؟»

-»أوه، نعم! إنها رائعة الجمال!» تلفظ الشاب الكلمات الأخيرة في نشوة.

-»ولم تلحظ شيئا؟ أليس كذلك؟» همس كوجي، فانفجر الشاب صائحاً:

-»ماذا تريد في النهاية؟ أغرب عن وجهي! أنا لا أعرف شيئاً!»

ورمى «كوجي» بنظرةٍ قاتلة جعلته يرتد على أعقابه.

ثم تقدم من ضيفٍ ثانٍ:

-»عذراً يا سيدي، ألم تلاحظ شيئاً غريباً؟»

-»مثل ماذا؟»

-»إيكا»

-»إنها جميلة، فاتنة، رقيقة، ذات حسنٍ لا يقاوَم! هل اكتفيت؟»

وأشاح عينيه على غير هدى حتى استقرتا على كأس الشراب.

أما الضيفان الآخران فإنهما لم يتنازلا حتى بالرد عليه.

وأصبح «كوجي» محطماً فانهار في يأس شديدٍ على أحد الكراسي وهو يغالب دموعه.

كان الحفل يوشك على الانتهاء، عندما شرع أحدهم يميل رأسه وسناناً، وأخذ الثاني يشعر بالغثيان، ومضى ثالث يشرب لا لسببٍ محدد بل بدافع الاستمرارية لا غير. أما «كوجي» فإنه لم يقصِّر هو الآخر، بل ظل يشرب ويشرب حتى يتمكن من القيام وقول الحقيقة.

ونهض أخيرا، ولكن بدلاً من صيحة الغضب كان كل ما صدر عنه مجرد تمتمات بائسة انفجر معها في بكاءٍ مرير

-»إنها لكذبة (نحيب) لا أعرف لماذا (نحيب) لماذا؟ لماذا؟ انظروا الى هذا، ليس.. إنها ليست (نحيب) أنظروا لماذا؟ إنها كذبة.. مستحيل (نحيب) آه (نحيب) ولكن لماذا؟

ثم استدار حول المائدة واندفع خارجا نحو الفناء.. نحو الظلمة..

وجاء دور «جينا» الذي لم يذق قطرةٌ طيلة الحفل، والذي كان ينصت الى «كوجي» باهتمام، فنهض وعليه سيماء الرضا ليعلن قائلاً:

-»أيها السيدات والسادة. أرجو أن تعيروني الانتباه. أصدقائي الأعزاء، لقد آن الأوان لنشرح لضيوفنا الخمسة حقيقة ما يدور وأن نقدم لهم اعتذارنا. لقد كان هذا نوعاً من التجربة العلمية النفسية لا أكثر، وهي تجري في العادة على الأطفال الصغار، إذ يتم مقدماً تنبيه تسعة أطفال من مجموع عشرة الى ضرورة أن يسمّوا الأحمر أبيضا وأن يشيروا الى الكرة باعتبارها مكعباً وهكذا، ويقوم الشريك العاشر -الغافل عما جرى من اتفاق- بترديد هذه الأكاذيب. إن هذا يحدث للأطفال. ولقد قررت إجراء اختبار من النوع نفسه، أي أن أضعكم في حالة من التوتر. أرجو أن تغفروا لي، لكن العلم هو العلم. وها قد شهدنا جميعاً نتيجة التجربة: إن المحاولة الوحيدة لقول الحقيقة باءت بالفشل الذريع. إسمحوا لي بالاعتذار مجدداً. ولكنني كنت فعلاً في حاجةٍ ماسةٍ الى تجربةٍ كهذه.

والآن دعونا نواصل احتفالنا.. إن أمامنا الليل بطوله»

وقصفوا حتى الصباح.

ونسي الجميع أمر «كوجي»

الحادث
إراكلي لوموري

حدث ذلك في يوم الأحد الحادي والعشرين من آذار عام 1982، في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر، في المترو، داخل محطة «الجامعة التكنولوجية».

كان ما يناهز العشرين فردا يقفون عند رصيف الانتظار. لم تستطع التحقيقات أن تحدد، لسوء الحظ، عددهم الدقيق؛ إذ يقول أغلب الشهود إنهم كانوا تسعة عشر، مع أن البعض يدّعي أنهم كانوا عشرين، اختفى أحدهم فيما بعد دون أن يترك أثرا. لكن لدينا- على أية حال- شهادة سبعة عشر مسافراً واثنين من موظفي المترو.

في الساعة الثالثة ودقيقتين بعد الظهر انبثق موكب من أعماق النفق متحركاً في الاتجاه المعاكس للقطار المتوقع وصوله. كان الموكب قافلةٌ من الجِمال يتقدمها بعير ضخم أبيض ذو سنامٍ وحيد بولغ في زينته. تقدم البعير مختالاً، بطريقة احتفالية، وكان الرجل الذي يعلوه ملتفعا بالبياض، يشهر سيفاً محدودباً وعلى وجهه الملثم الأسمر ما ينم على الوقار والصرامة والتجهم.

ثم مرت في أعقابه جمال ذوات سنامين مثقلة بالأحمال يحدوها بداةٌ بسطاء تدل وجوههم الرزينة الواثقة اللامبالية على الإرهاق الشديد. اندفعت الجمال في خطى سريعات، كان عددها عشرةٌ أو ربما عشرين أو ثلاثين (إذ لا يوجد اتفاق حول هذه النقطة). وجاء في

المؤخرة بعيرٌ بدا للوهلة الأولى مفتقراً الى من يحدو به لكن حاديه ما لبث أن ظهر إن ملابسات هذه النقطة الأخيرة هي الأخرى غير واضحة.

تجاوبت أصداء سير القافلة داخل المحطة مع رائحة العرق اللاذعة الكريهة. وفي تمام الساعة الثالثة وأربع دقائق غابت القافلة داخل النفق.

في الساعة الثالثة وخمس دقائق خرج القطار من النفق ولم يلاحظ المهندس ولا المسافرون أي شيء غريب. أما التسعة عشر الواقفون في المحطة فقد تجمدوا كالأصنام.

وكان أول من عاد منهم الى الحياة رجل يدعى «كايوز كيكوري» (34 سنة، عاطل عن العمل، مدمن على السكر ومتطفل وذو محكوميات سابقة لارتكابه أعمال شغب صغيرة) وقد أثبت الفحص الطبي اللاحق أنه لم يكن صاحيا ساعة وقوع الحادث. في الساعة الثالثة وست دقائق انفجر في نوبة من الضحك تجمد الدم في العروق كان سببها -كما اتضح- تخيلات ناتجة عن هلاوس كحولية. استمر في الضحك خمساً وعشرين دقيقة ثم تدهورت حالته. هذه الأصوات المريعة أدت الى إصابة الآنسة «ديانياش» (37 سنة، عزباء، مساعدة مختبر في معهد الطب البيطري) بتقلصات هستيرية وولادة مبكرة، بالرغم من أنها ادعت فيما بعد أنها لم تكن حبلى، بل وأنها عذراء.

في اللحظة نفسها أغمي على الآنسة «روزا م. جالويفا» (51 سنة، ربة بيت) وارتطمت بالأرض فأصيبت بفطر في الجمجمة

وقامت على الأثر برفع دعوى قضائية ضد إدارة المترو مطالبةً إياها بتعويضٍ قدره (500) روبل عن الأضرار التي أصابتها، بالرغم من أنها لم تعانِ إلا من ارتجاجٍ بسيط.

اندفع الركاب النازلون من القطار الى مساعدة الآنستين «ديانياش وجالويفا» لكن انتباههم انصرف في اللحظة عينها الى ما يلي. أغمي في وقتٍ واحدٍ على أربعة عشر شخصاً آخرين «ثمان نساء وستة رجال» فيما جثا رجلٌ يدعى «ب. م. بتروف» (67 سنة، متقاعد) على ركبتيه وشرع بالصلاة والنحيب واللطم على صدره. أما السيد «د. كوبلاش» (47 عاماً، عضو عاملٌ في الحزب، ومدير المنفذ التسويقي رقم 20 التابع لهيئة التعاونيات الاستهلاكية في تبليس» فقد ابيض شعره تماماً، ثم تساقط، ثم نما من جديد في غضون دقيقةٍ واحدةٍ فقط. شخص وحيد حافظ على صوابه ورباطة جأشه وهو السيد «م. زوريكاش» (20 سنة، عضو عصبة الشباب، والطالب في جامعة تبليس التقنية) الذي استحقت أفعاله كل إطراء، فقد أسرع حال دخوله الرصيف الى استدعاء الشرطة والإسعاف ثم توجه الى مساعدة الآنسة ديانياش. وخلال نصف ساعةٍ تم الفراغ من نقل المصابين والطفل الحديث الولادة (الجنس. ذكر، الوزن. 8 ليبرات) الى المستشفى المحلي. ثم بدأت الإجراءات الجنائية وبوشر في التحقيق. قام فريق من دائرة المباحث الجنائية برئاسة النقيب «أميران توروش» بتفقد الموقع وعثر على الدليل المادي الأول (والأخير كما تبين بعد أيام) على صحة إفادات الشهود: مادة صلبة صفراء-بنية ذات رائحة كريهة

نفـاذة، الـوزن: «1» ليـبرة.

قامـت لجنـة استثنائية مـن الخـبراء مـن مختلـف الأقسـام والهيئـات المعنيـة بفحـص دقيـق للـمادة وتوصلـت الى استـنتاج مفـاده إنهـا عبـارة عـن غائـط حيـواني (يحتمـل أن يكـون لبعـير). وبعـد اسـتجوابات واسـتجوابات ثانويـة مفصلـة أعيـد بنـاء الأحـداث، بالرغـم مـن أن ذلـك لم يسـاعد قـط عـلى تفسـير الحادثـة.

كشـفت التحقيقـات عـن العديـد مـن الحقائـق الملفتـة للنظـر، لكـن أيـا منهـا لم يكـن يتعلـق مبـاشرة بحادثـة الحـادي والعشريـن مـن آذار فقـد اعـترف «د. م. كوبـلاش» أن يـده امتـدت في مناسـبات عديـدة الى البضائـع الموجـودة في المخـازن التـي يـشرف عليهـا. وأقـر «ج. ج. جيكـوري» بأنـه حصـل عـلى أمـوالٍ عـن طريـق الابتـزاز. كـما اعـترف «ك. د. كارالاش» بتلقـي الرشـاوى بصـورة منتظمـة. أمـا «أ. ن. لايـادز» فقـد أقـر بأنـه تـزوج مـن أربـع نسـاء في أماكـن متفرقـة مـن جورجيـا.. الـخ الـخ. لقـد اكتشـف كل الـركاب تقريبـاً أمـوراً تسـتحق النـدم. ومـن الأرجـح أن تكـون تلـك الاعترافـات الطوعيـة ناجمـة عـن حالـة الصدمـة التـي تعرضـوا لهـا.

فشـلت دائـرة التحقيقـات الجنائيـة، بالرغـم مـن كل مـا بذلـت، في التأكـد مـن وجـود الراكـب العشريـن أو عـدم وجـوده مـن الأسـاس، كـما لم تتوصـل الى كيفيـة ومـكان اختفائـه، هـذا إن كان موجـوداً أصـلاً. فقـد ادعـت الآنسـة «أرينـا دياليـش» (19 سـنة، عضـو عصبـة الشـباب، طالبـة في جامعـة تبليـس) وهـي التـي أعطـت الوصـف الأكثـر تفصيـلاً للشـخص رقـم 20 المفـترض (طويـل، نحيـل، أجعـد الشـعر، ذو ذقـن

غير حليق، يرتدي سروالا متآكلا من الجينز الأزرق وسترة جلدية، عمره بين عشرين واثنين وعشرين عاماً)، ادعت إن الرجل الغريب إلتحق بالقافلة، لكن الشهود الآخرين لم يعززوا ما ذكرت.

بعد ثلاثة أشهر من العمل الشاق توصلت لجنة الخبراء الى أن تلك الحادثة لم تكن غير حالة من التنويم المغناطيسي الجماعي، مضيفة أنها لم تتمكن مع ذلك من تفسير وجود الغائط الحيواني داخل النفق. ثم أغلقت القضية وحُجِبت عن السجلات الرسمية. وظلت المدينة تعج بالأقاويل زمناً طويلاً: فكان البعض يعزو الحادث الى اصطفاف الأفلاك، فيما عزاها آخرون الى التأثيرات فوق الصوتية وآخرون غيرهم الى مثلث برمودا أو الأطباق الطائرة. وشيئاً فشيئاً عاد المواطنون التسعة عشر الى أعمالهم اليومية، وفعل الزمن والعلاج فعلهما (وقد غفر لهم على أساس حالتهم النفسية الخطيرة). أما السادة «كيكوري وكوبلاش، ولايادز» وآخرون فقد قوموا سلوكهم. فقط الآنسة «جالويفا» ما تزال تطالب بالتعويض، أما الطفل الذي وضعته الآنسة «ديانياش» (والذي سمّته «محمود» لسبب مجهول) فهو في صحةٍ جيدة بالرغم من أنه يعيش دون أب. إنهم كلهم على ما يرام، غير أنهم يتجنبون ركوب المترو، هذه الوسيلة الرخيصة المريحة للنقل رغم غرابة أطوارها).

لكن هناك استثناءً واحداً: إن السيد «ديفاليش» ينزل من القطار كل يوم عند محطة الجامعة التكنولوجية ثم يمضي ليجلس على إحدى المصطبات وكأنه ينتظر شيئا ما.

ماذا ينتظر ؟

اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء في أيرلندا من أن يكونوا عبئاً على ذويهم أو وطنهم ولجعلهم مفيدين للشعب

جوناثان سويفت[1]

(1) يعد الكاتب والسياسي الانكليزي-الإيرلندي جوناثان سويفت Jonathan Swift (1667-1745) واحداً من أعظم أساتذة النثر الانكليزي وكاتباً هجائياً من الطراز الأول. سلط قلمه الذي لا يعرف الرحمة على حماقات البشر ونفاقهم في كل زمان ومكان. وهو في لغته التي تتصف بالقوة والإيجاز معا لما يزل منذ قرون يأسر قلوب الصغار والكبار من مختلف الأهواء والمشارب والاتجاهات. ولد في دبلن في الثلاثين من نوفمبر 1667 وتلقى تعليمه الديني في جامعة ترينتي في ايرلندا ثم عمل في إنكلترا سكرتيراً للدبلوماسي والكاتب الإنكليزي السير وليم تمبل. نشر عام 1697 عمله المبكر «معركة الكتب» The Battle of the Books وهو محاكاة ساخرة لما كان يحتدم في عصره من خلاف بين أنصار الكتاب القدامى والمحدثين فنراه ينتصر للمؤلفين القدامى مهاجماً فساد وزيف الأوساط الأدبية والفكرية في عصره. أما كتابه «قصة حوض غسيل» A Tale of a Tub (1704) فيعد أحد أكثر أعماله الهجائية إمتاعاً وأصالة. وفيه يسخر بشكل لاذع بأنواع النفاق والحذلقة والدجل وخصوصاً في الأوساط الثقافية والدينية، مما أثار شكوكاً قوية حول التزامه الديني، كما أثار حفيظة الملكة آن وحال، كما قيل، بينه وبين ارتقائه في المناصب الدينية.داخل إنكلترا.

كرس سويفت الكثير من جهده وكتاباته للدفاع عن شعبه الايرلندي مما صيره بطلاً قومياً محبوباً. غير أن أعظم أعمال الكاتب هو بلا شك «رحلات الى العديد من أمم الأرض البعيدة» والمعروف على نطاق عالمي بـ «رحلات غوليفر». وقد نشره عام 1726 دون ذكر اسم المؤلف فلاقى نجاحاً مدوياً على الفور. كان غرض سويفت من كتابه هذا في الأصل أن يسلط سهام سخريته وهجائه على النفاق والغرور والغباء الذي كان يتحكم في رجال السياسة والأحزاب والبلاطات الملكية في عصره، لكنه، خلال كتابته إياه وظف انطباعاته الأكثر نضجاً عن طبيعة المجتمع الإنساني فصارت رحلات غوليفر عملاً مريراً وحشي القسوة في سخريته من الجنس البشري برمته. غير أن هذا الكتاب الخالد كان من سعة الخيال والظرف والسهولة بحيث ظل منذ ذلك الوقت عملاً يستمتع به الصغار والكبار وتحول الى مصدر لعشرات من الأعمال السينمائية والتلفزيوني والإذاعية وأفلام الرسوم المتحركة.

عانى سويفت في سنواته الأخيرة من أدوار متزايدة من القنوط والوحدة والخوف من الجنون وخصوصاً بعد رحيل حبيبته ستيلا حتى توفي في=

إن مما يبعث الكآبةَ في نفوس الذين يتجولون في هذه المدينة الكبيرة، أو يتنقلون عبر الأرياف، رؤيتَهم الشوارعَ والطرقاتِ وأبواب الأكواخ وهي تعجُّ بالمتسولات، اللاتي تجرُّ كلٌّ منهنّ في أعقابها ثلاثةً أو أربعةً ولربما ستةً من الصغار، وهم جميعا في أسمالهم البالية، يضايقون كلَّ رائحٍ وغادٍ بطلب السؤال. هؤلاء الأمهات، وبدلاً من أن يحصلنَ على عمل يكسبن منه رزقاً شريفاً، مرغماتٌ على إنفاق الوقت في السعي هنا وهناك لاستجداء ما يسدُّ رمق صغارهنّ البائسين: الذين ما أن يبلغوا أشُدَّهم حتى ينقلبون الى لصوصٍ لانعدام فرصِ العمل، أو يهجرون وطنهم العزيز ليقاتلوا تحت لواء المدّعي بالعرش في أسبانيا [1] أو يبيعوا أنفسهم الى أهل الباربادوس [2]

وإني لأعتقدُ بأن جميعَ الأحزاب متفقة على أن هذا العددَ الهائل من الأطفال في أحضان، أو على ظهور، أو بين أقدام الأمهات (والآباء في أحيانٍ كثيرة)، وفي هذه الظروف المُحزِنة

=التاسع عشر من أكتوبر 1745 ودفن الى جانبها في كاتدرائيته بدبلن. وعلى شاهدة قبره نقِشت هذه الكلمات التي كتبها بنفسه «هنا يرقد جسد جوناثان سويفت، رئيس هذه الكاتدرائية؛ حيث لن تستطيع نيران النقمة أن تلسع فؤاده بعد الآن. ارحلْ يا عابر السبيل، وتشبّه، إذا استطعت، بمحارب مقدامٍ من أجل الحرية»

(1) المدعي بالعرش The pretender واسمه الكامل جيمس ادورد ستيوارت (1766-1688). ابن عاهل إنكلترا الكاثوليكي المخلوع جيمس الثاني(الذي طرد من الحكم عام 1688). لقبه أنصاره بجيمس الثالث وقاد من منفاه في فرنسا عدة محاولات فاشلة لاسترداد العرش. شارك الى جانب حلفائه الفرنسيين في حرب الخلافة الأسبانية في الأعوام (1714-1701)

(2) The Barbadoes في القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت جزر الكاريبي (ومنها باربادوس) مستورداً رئيسياً للعبيد للعمل في مزارع قصب السكر العظيمة التي أنشأها المستعمرون الأوربيون.

التي تمرُّ بها المملكة، هو حيفٌ إضافي عظيم. لذلك فإن أي شخصٍ يكتشفُ طريقةً سهلةً لتحويل هؤلاء الصغار الى أعضاءَ نافعينَ سليمين في المجتمع يستحق من الجمهور أن يقيم له تمثالاً باعتباره حامياً للأمّة.

لكن غرضي أبعدُ بكثيرٍ من أن يتحدد بتوفير سبل العيش لأطفال المتسولين المحترفين، وهو يمتد الى مدىً أوسع، وإنه لَيأخذُ بالحسبان العددَ الكليّ للأطفال في سن معيَّنةٍ مِن الذين ينجبهم آباء لا يختلفون عملياً في عجزهم عن إقامة أَوَدِ أطفالهم عمّن يسألوننا الصدقةَ على قارعة الطريق.

أما عن نفسي فقد أمضيتُ سنواتٍ عديدةً في التفكير بهذا الموضوع المهم، وقلّبتُ النظر ملياً في البرامج الكثيرة التي وضعها المخططون الآخرون، فوجدتُها جميعاً وقعتْ في أخطاء حسابية كبيرة. فمن الواضح أن الطفل الذي خرج للتو من بطن أمه يمكن أن يعيش على لبنها عاماً شمسياً كاملاً، مع قليل من الطعام الإضافي، وذلك بكلفة لا تتعدى اثنين من الشلنات، وهو المبلغ الذي تستطيع الأم الحصول عليه، أو على ما يعادله من فضلات الطعام، عن طريق مهنة التسوّل القانونية. وعند هذا العمر، أي بعد سنة من الولادة بالتحديد، أنوي أن أنهض بأعباء هؤلاء الصغار بطريقة لا تتركهم عالةً على والديهم أو أبرَشيّاتهم، أو مُعوِزين الى الطعام والكساء بقيةَ حياتهم، بل تجعلهم يسهمون، بدلاً من ذلك، في تغذية الآلاف والآلاف، وإكسائهم جزئياً.

كما إن خطتي تشتمل على فائدة عظيمة أخرى، وهي إنها

ستمنع عمليات الإجهاض الطوعية أو ممارسة النساء لتلك العادة البشعة، أعني قتلَ أطفالهن البائسين، وهي شائعة بيننا مع الأسف! مضحياتٍ بأولئك الصغار الأبرياء تجنباً للنفقات أكثر من خشيتهن العارَ كما يرجِّح ظني، الأمر الذي يستدرُّ الرحمةَ والدموعَ في أكثر القلوب همجيةً ولا إنسانية.

جرت العادة على تقدير عدد سكان هذه المملكة بمليون ونصف المليون نفس، وقد دلتني حساباتي أن بين هؤلاء حوالي مائتي ألف زوج (couple) تكون فيها المرأة قادرةً على الإنجاب، وسأطرح من هذا العدد ثلاثين ألف زوج ممن يستطيعون إعالة أطفالهم، رغم خشيتي من كون عددهم أقل من هذا في ظل المصائب التي تعانيها المملكة هذه الأيام. وحتى لو سلّمنا بذلك فسيبقى لدينا مائة وسبعين ألف مُنجِبة، سأطرح منهن مجدداً خمسين ألفاً ممن يعانين من الإجهاض أو يموت صغارهن خلال سنتهم الأولى من جرّاء الأمراض أو الحوادث. الباقي هو مائة وعشرون ألف طفل ممن يولدون سنوياً لوالدين فقيرين. لذلك فإن السؤال هو: كيف يمكن إعالة وتنشئة كل هذا العدد؟ وهذا أمر تعجز كل خطة قدمت للآن عن تحقيقه في هذه الظروف الاقتصادية التي ذكرتها للتو. فنحن لا نستطيع تشغيل كل هؤلاء في الحرف اليدوية ولا في الزراعة، ونحن لا نشيد الدور (أعني في الريف) ولا نستزرع الأرض. وهؤلاء الصغار لا يقدرون -إلا في ما ندر- على كسب قوتهم بالسرقة حتى يبلغوا السادسة من العمر، إلا إذا تمتعوا بمواهب نادرة، رغم اعترافي بأنهم يتعلمون المبادئ

الأولية في سنٍّ أبكر بكثير. أما قبل ذلك فلا يصح النظرُ إليهم إلاّ باعتبارهم متدربين، وذلك كما أخبرني أحد السادة المحترمين في مقاطعة كافِن[1] الذي أكد لي أنه لم يعرف سوى حالةً أو حالتين لأطفال دون السادسة، حتى في جزءٍ من المملكة مشهورٍ بأنه الأسرعُ في إتقان هذا الفن.

وقد أكد لي تجّارنا أن الفتى أو الفتاة دون عمر الثانية عشرة من العمر لا يُعَدّان بضاعةً قابلة للبيع. وحتى لو بلغا هذا العمر فإنهما لن يُؤتيا عند البيع أكثر من ثلاثة جنيهات، أو ثلاثة جنيهات ونصف الكراون[2] في أبعد تقدير، وهو المبلغ الذي لا يوفي الوالدين ولا المملكة مصاريف الطعام والأسمال التي تزيد عن هذا بأربعة أضعاف على الأقل.

لذلك سأتقدم الآن، وبكل تواضع، بأفكاري الشخصية التي آمل ألاّ تكون ضعيفةً أمام أي نقدٍ أو اعتراض.

لقد أكد لي أحدُ معارفي الأمريكان في لندن، ممن هم على إطلاع عظيم، أكد أن طفلاً صغيراً صحيحَ البدن حسنَ التغذية يشكل عند إكماله العام الأول من عمره طعاماً شهياً ومغذياً وصحياً للغاية سواء قُدِّم مسلوقاً أو مشوياً أو محمصاً أو مطبوخاً بالبخار. وأنا من جهتي لا أشك بأنه يصلح بنفس القدر لإعداد الكفتة أو اللحم المتبَّل.

ولذلك فإني وبكل تواضع أعرض على أنظار الجمهور إن

---

(1) Cavan مدينة في جمهورية ايرلندا الحالية كانت تشكل واحدا من النواحي التسع التي كانت تتألف منها مقاطعة أولستر التاريخية

(2) الكراون Crown عملة بريطانية قديمة كانت تساوي خمسة شلنات.

نحتفظ من المائة وعشرين ألف طفلٍ الذين حسبناهم آنفاً بعشرين ألفاً لأغراض التكاثر على أن يكون ربعهم فقط من الذكور، وهو ما يفوق النسبةَ المسموح بها للأغنام والأنعام والخنازير، ومبرري في ذلك أن هؤلاء الأطفال قلما يكونون ثمرةً للزواج، وهو الأمر الذي لا يعيره أوباشُنا كبيرَ اهتمام. لذلك فإن ذكراً واحداً سيكفي أربعة إناث.

ثم نعرض المائة ألف الباقين للبيع على الأشخاص ذوي الثراء والمنزلة الرفيعة في أرجاء المملكة وذلك فورَ إكمالهم السنةَ الأولى، على أن توصى الأمهاتُ بإرضاعهم جيداً خلال الشهر الأخير كي يكونوا ريّانين ومكتنزين فوقَ الموائد المحترمة. إن طفلاً واحداً يمكن أن نصنع منه طبقين في وليمة ندعو إليها الأصدقاء. أما عندما تتغذى العائلة لوحدها فيمكن أن نصنع من الربع الأعلى أو الأسفل من الذبيحة وجبة معقولة. أما إذا أضفنا قليلا من التوابل والملح فيبقى صالحاً للسلق حتى اليوم الرابع، وخصوصاً في الشتاء.

لقد دلتني حساباتي أن معدل وزن الطفل الحديث الولادة هو 12 رطلاً، ثم يزداد خلال سنة شمسية واحدة حتى يبلغ 28 رطلاً، إذا أُحسِن إرضاعُه. أنا أُسلّم بأن هذا الطعام سيكون غالياً بعض الشيء، ولذلك سيكون مناسباً جداً لملاّك الأراضي الذين كما يبدو –وبعد أن التهموا أكثر الآباء– يمتلكون الحق الشرعي الأوفر بهؤلاء الصغار.

إن لحم الأطفال سيكون متاحاً على مدار السنة، غير أنه سيكون وفيراً في آذار وقبله أو بعده بقليل، وذلك لأن أحد المؤلفين الموقرين، وهو طبيب فرنسي بارز، أخبرنا أن لحم السمك يُزيد الخصوبةَ لدى الإنسان، وبهذا يَزيد عدد الأطفال المولودين بعد تسعة أشهر من الصوم الكبير عما يولد في المواسم الأخرى في البلدان الكاثوليكية. لذلك، وبعد احتساب عام على الصوم الكبير، سيكون السوق متخماً أكثر من المعتاد لأن عدد الأطفال الكاثوليك هو ثلاثة أضعاف غيرهم في هذه المملكة. وعلى ذلك سيكون للأمر فائدة إضافية أخرى وهي تقليل عدد الكاثوليك بيننا.

لقد حسبت للتو أن كلفة إرضاع الطفل الواحد من أطفال المتسولين (الذين أدرجتُ في قائمتهم كل سكان الصرائف، والعمال، وأربعة أخماس الفلاحين) هي شلنان في العام (مع احتساب الأسمال). وأظن أن أي سيد محترم لن يتبرّم من دفع عشرة شلنات لقاء ذبيحة من طفل سمين ممتاز يمكن أن نُعدَّ منها، كما أسلفتُ، أربعة أطباق من اللحم الشهي المغذي في مائدة تجمعه ببعض الأصدقاء المقربين أو بأفراد الأسرة. وهكذا سيتعلم مالك الأرض أن يكون ملاّكاً ممتازاً وستزداد شعبيته بين المستأجرين، وستحصل الأم على ربح صافٍ قدره ثمانية شلنات، كما ستحافظ على لياقتها للعمل حتى تنتج طفلاً ثانياً.

---

(1) الصوم الكبير Lent وهي فترة من الصوم والعبادة تدوم أربعين يوما في الكنيسة الكاثوليكية قبل عيد الفصح تخليداً لصوم المسيح في البرية.

أما الذين هم أكثر اقتصاداً (وعليَّ الاعترافُ بحاجة زمننا الى ذلك) فإن في مقدورهم سلخُ «الذبيحة» والاستفادة من جلدها بعد دبغها لصنع قفازات رائعة للسيدات المحترمات أو أحذية صيفية للسادة المحترمين.

أما بالنسبة الى مدينتنا دبلن فيمكن تعيين مجازر متخصصة في الأماكن المناسبة فيها، كما لن يعوزنا القصابون بالتأكيد، رغم أنني أفضلُ شراء الأطفال أحياءً وإعدادهم للشواء بعد ذبحهم فوراً (ودمهم لما يزل ساخنا كما نفعل بالخنازير).

إن شخصا نبيلاً محبا لوطنه، أُكنُّ لفضائله أكبر الاحترام، سَرّهُ عندما تحدثنا مؤخراً في هذا الموضوع، أن يقترح تحسيناً على خطتي فقال إن العديد من السادة المحترمين في هذه المملكة قد استنفدوا الأيائل في أراضيهم في الآونة الأخيرة، وهو مقتنع بأن شحّة لحم الطرائد يمكن تعويضها بأجساد الفتيات والفتيان اليافعين على أن لا يتجاوزوا الرابعة عشرة ولا يقلوا عن الثانية عشرة. والكثير الكثير منهم، في كل البلدان ومن كلا الجنسين، يتضورون الآن جوعاً لغياب العمل أو المعونة. وهؤلاء يتم التخلص منهم بواسطة أبويهم، إن كانوا أحياء، وإلا فبواسطة أدنى الأقرباء.

ولكن مع الاحترام الواجب لهذا الصديق الرائع والوطني الغيور، فإنني لا أستطيع مشاركته مشاعره على طول الخط. فبالنسبة للذكور. أكد لي صديقي الأمريكي، ومن تجاربه وخبرته الطويلة، أن لحمهم عادة ما يكون قاسياً وهزيلاً، كما يحدث لأطفال المدارس عندنا بسبب التمارين المستمرة، وأن مذاقهم ليس بالمستساغ، ولن

يفيدَ تسمينُهم في حلّ المشكلة. أما فيما يتعلق بالإناث فإني أعتقد، بكل تواضع وخضوع، أن في ذلك خسارةً للجمهور، حيث لن يمرَّ وقت طويل قبل أن يبلُغن هن أيضاً سنَّ التكاثر، علاوةً على أن بعض المتشككين قد يميلون الى استهجان هكذا ممارسة (رغم أنهم في الحقيقة جائرون للغاية في ذلك) على اعتبارها قريبة بعض الشيء من القسوة. غير أن على الاعتراف بأن هذا ما انفكَّ في رأيي أقوى الاعتراضات على أي مشروع مهما بلغ من إحكام.

ولكن، ولكي أبرِّئ ساحةَ صديقي، سأقرُّ بأنه قد اعترف لي أن هذا التدبير ورد في باله بتأثير من «سالمازار» المشهور، وهو مواطن من جزيرة فرموزا قدم منها الى لندن قبل عشرين عاماً وأخبر صديقي في حديث بينهما أن العادة في بلاده عندما يحكم بالموت على شخص في مقتبل العمر أن يبيع الجلاد «ذبيحة» الضحية الى صفوة القوم كطعام من الدرجة الأولى، وقال إن جسد إحدى الفتيات السمينات في الخامسة عشرة من العمر، وقد صُلِبتْ لمحاولتها تسميم الإمبراطور، قد بيع في زمانه الى رئيس وزراء صاحب الجلالة الإمبراطورية وكبارِ موظفي البلاط قطعة فقطعة وهو في المشنقة بأربعمائة كراون.

كما لا يسعني إنكار أنه لو جرى استعمال مماثل لعدد من فتيات مدينتنا السمان اللاتي، وقد حرمن من قرش واحد حتى لم يعد بإمكانهن مغادرة البيت إلا على محفّة، يظهرن في المسارح

---

(1) تنبغي الإشارة الى أن محتالًا فرنسياً يدعى سالمازار (توفي عام 1763) قد ظهر فعلاً في إنكلترا وادعى بنجاح بالغ أنه من مواطني فرموزا حتى أنه ألف كتابا عن تلك الجزيرة التي لم يرها قط!

والتجمعات في ثيابٍ أجنبية مبهرجة لا يدفعن ثمنها، فإن حال المملكة لن يزداد سوء.

ينتاب بعض الميالين الى الكآبة قلقٌ شديد لهذا العدد الكبير من الفقراء المسنين، أو المرضى أو المشوهين. وقد طلب الي أن أُعمِل تفكيري في طريقة لإراحة الأمة من هذا العائق الخطير. لكنني مطمئن تماماً بهذا الصدد. إذ من المعروف أن هؤلاء يهلكون ويهترئون كل يوم بسبب البرد والجوع والأقذار والحشرات بالسرعة المعقولة المتوقعة. أما بالنسبة للعمال الشباب فهم في حالة واعِدة مشابهة: فهم لا يستطيعون الحصول على عمل فتراهم يهزلون من نقص الغذاء الى درجة تجعلهم عاجزين عن أداء أي عمل عمومي قد يُستأجَرون بالصدفة لإنجازه. وهكذا يتخلصون وتتخلص البلاد من أي شرور قادمة.

لقد استطرتُ كثيراً، ولهذا سأعود الى موضوع حديثي: أنا أعتقد أن فوائد اقتراحي هذا واضحة وعديدة، كما إنها ذات أهمية رفيعة.

فهو أولاً، وكما لاحظت للتو، سيقلل الى حد بعيد عدد الكاثوليك الذين يفيضون علينا عاماً بعد عام لكونهم المصدرَ الرئيس للتكاثر في أمّتنا وعدوَنا الأخطر في نفس الوقت، الذين يتعمدون البقاء في الوطن وفي نيتهم تسليم المملكة الى المدعي بالعرش، أملين أن يجدوا فرصتهم بغياب كل هذه الأعداد من البروتستانت الصالحين الذين آثروا مغادرة وطنهم على البقاء فيه وتسليم أموال الزكاة -بالضد من ضمائرهم- الى أحد

القساوسة البروتستانت.

ثانياً: سوف يكون لدى المستأجرين الأكثر إملاقاً شيئاً ذا قيمةٍ يملكونه، يمكن للقانون أن يجعله قابلاً للحجز ويساعد على دفع مبالغ الإيجار المترتبة عليهم عند الملاك، بعد أن قبضوا على زرعهم وماشيتهم فعلاً، وبعد أن صارت النقود شيئاً لا يفقهون معناه.

ثالثاً: حيث أن إدامة مائة ألف طفلٍ، من العام الثاني فصاعداً لا يمكن أن يقدر بأقل من عشرة شلنات في العام للقطعة الواحدة، فإن خزينة المال العام ستزداد خمسين ألف جنيهاً كل عام. أضف الى ذلك فائدة إضافة صحن جديد الى موائد السادة المحترمين الأثرياء في المملكة الذين يملكون شيئاً من حسن الذائقة. كما إن النقود ستظل دائرةً بيننا، لكون البضاعة من إنتاجنا وتصنيعنا.

رابعاً: سيتخلص المولِّدون الدائمون من تكاليف الحفاظ على أطفالهم بعد العام الأول، ناهيك عن أنهم سيحصلون على عشرة شلنات إسترلينية من بيعهم لهم كل عام.

خامساً: إن هذا الطعام سيجلب أيضاً أرباحاً عظيمة للحانات، إذ أن تجار الخمور سيكونون بالتأكيد على قدر من الحصافة تجعلهم يبذلون قصارى جهدهم ليُعدّوا منه وصفاتٍ مثاليةً، وبذلك سيتردد على حاناتهم المزيدُ من السادة المحترمين المهذبين الذين يحقُّ لهم التباهي بخبرتهم في الأطعمة الراقية. أما الطباخ الماهر الذي يعرف كيف يمسك بزبائنه، فسيحتال كي يجعل طعامَه بالغلاء الذي يسرُّهم.

سادساً: سيكون في هذا حافز عظيم على الزواج، الذي ما فتأت كل الأمم العاقلة تشجّعهُ بالمكافآت حيناً، أو تفرضه بالقوانين والعقوبات حيناً آخر. وسيزيد من عناية ولطف الأمهات بصغارهن، عندما يتأكدنَ من وجود ترتيبات لمدى الحياة لأطفالهن المساكين، يقدمها المجتمع بشكلٍ ما، وتعود عليهن بريعٍ سنوي بدلاً من النفقات. وسنشهد تنافساً شريفاً بين النسوة المتزوجات على من تجلب للسوق أسمن الأطفال. وسيكون الرجال مغرمين بنسائهم أثناء الحمل كما يفعلون الآن مع أفراسهم وأبقارهم وخنازيرهم المنتفخات البطون بالفِلاء والجداء والخنانيص. ولن يُقدِموا بالتأكيد على ركل نسائهم أو لطمِهِنَّ (كما هي العادة المتّبَعة) خوفاً عليهن من الإسقاط.

وبوسعي أن أعدد الكثير من الفوائد الإضافية. منها على سبيل المثال: إضافةُ عدة آلاف من «الذبائح» الى ما نصدرهُ من براميل اللحم المعلب، تحقيقُ وفرة في لحم الخنزير، تطويرُ فنٍّ صناعة لحم الخنزير المقدد الذي نحن أحوج اليه بسبب التدمير الواسع لثروتنا من الخنازير لكثرة ما يقدم منه على موائدنا، وهو في كل الأحوال لا يضاهي في المذاق والفخامة طفلاً حولياً سميناً كامل النمو، حين يشوى دون تقطيع فيُضفي منظراً جليلاً على وليمة يقيمها حضرة السيد المحافظ أو على أية وليمة عامة أخرى. لكنني أهملت هذه الفوائد وكثيرا غيرها لحرصي على الإيجاز.

ختاما لكل ما قلت فإني لست شديد التعصب لفكرتي هذه الى الحد الذي يدفعني الى رفض أية عروض أخرى يقدمها

حكماؤنا، على تكون على القدر نفسه من البراءة والرخص والسهولة والفعالية.

ولكن قبل أن يتقدم أحد بشيء من هذا القبيل يناقض به خطتي ويطرح بديلاً أفضل، أود أن ينشرح صدر المؤلف أو المؤلفين فيأخذوا بنظر الاعتبار هاتين النقطتين: أولاً كيف يمكنهم، والأمورُ على ما هي عليه الآن، تدبيرَ الطعام واللباس لمائة ألف من الأفواه والأجساد العديمة الفائدة.

ثانياً: هناك ما يقارب المليون مخلوق في أشكال بشرية في طول هذه المملكة وعرضها من الذين إذا وضعنا كل ما يملكون من مقومات البقاء في حساب رأس المال العام لوجدناهم مدينين بمائتي مليون جنيه إسترليني. هؤلاء هم المتسولون المحترفون يضاف إليهم السواد الأعظم من الفلاحين، وسكان الصرائف، والعمال، مع أزواجهم وأطفالهم المتسولين عملياً.

أتمنى على الساسة الذين لا يحبذون اقتراحي، والذين يمتلكون من الشجاعة ما يدفعهم الى محاولة الإجابة، أن يسألوا قبل كل شيء آباءَ هؤلاء الفانين إنْ كانوا في هذه الأيام لا يجدون سعادة عظيمة في بيعهم كطعام للناس عند بلوغهم السنة من العمر، كما شرحت آنفاً. لكي يتجنبوا مشهد الشقاء السرمدي الذي كابدوه من جور ملاك الأرض، واستحالة دفع الإيجار في غياب المال أو الأعمال، والافتقار الى مقومات العيش الأساسية، دون بيتٍ يأويهم أو ثياب تقيهم قسوة الأنواء، والمصير المحتوم لذريتهم في ملاقاة هذا الشقاء أو ما يزيد عليه حتى آخر الزمان.

أنـا أعـترف، بـكل مـا بقلبـي مـن إخـلاص، أنْ ليـس لي مـن منفعـة شـخصية في مسـعاي الى تشـجيع هـذا العمـل الـضروري. ولا دافـع لي غـير رفـاه مواطنـي بـلادي عـن طريـق تطويـر تجارتنـا والقيـام بأعبـاء أطفالنـا الرضـع، وإراحـة الفقـراء، ومنـح شيء مـن السـعادة للأغنيـاء. وليـس عنـدي مـن صغـار يعـودون عـلي ببنـس واحـد. فأصغـر أطفـالي في التاسـعة مـن عمـره، وقـد تجـاوزت امـرأتي سـن الإنجـاب.

1729

الغرانيق تطير جنوباً

إدورد ماك كورت[1]

-»إنها تطير الليلَ بطوله» قال الرجل العجوز «في البداية تسمع صوتا قادما من بعيد فتحسبه هدير الرعد، ثم يزداد قرباً ودويّا، وسرعان ما يصبح مثل قطار شحنٍ يمر من فوق رأسك، أما إذا كانت الليلة مقمرة فإنها تسد صفحة البدر حتى يستحيل الليل ظلاما دامساً»

-»لكنني أقول لك إنني شاهدت واحداً منها» قال «لي الصغير» ثم أردف «إنها الحقيقة يا جدي. هناك عند مستنقع بيكرز، كنت أبحث عن البط- وفجأة...

-»لم يعد هناك من غرنوق نعّاب في أيامنا» قال العجوز في أسى.[2]

---

(1) Edward McCourt (1907-1972) كاتب كندي من أصل ايرلندي، يعد واحداً من أفضل الكتاب الكنديين وأغزرهم إنتاجاً رغم أنه لم يحظ، لا في حياته ولا بعد موته، بالكثير من الشهرة التي حظي بها مجايلوه. درس في إنكلترا وكندا. عمل أستاذا للأدب الإنكليزي وكتب العديد من الروايات والعشرات من القصص القصيرة والكتب النقدية وكتب الأطفال والرحلات والمسرحيات الإذاعية. كان مولعا بشكل خاص بتصوير الحياة الريفية في مناطق السهول العشبية شمالي القارة الأمريكية.

(2) الغرنوق النعاب Whooping Crane طائر كبير الحجم من فصيلة الغرانيق (الكراكي) يعيش في كندا وشمالي أمريكا ويهاجر صيفا الى الجنوب نحو تكساس وخليج المكسيك في رحلة تستغرق 2500 ميلاً. كان موشكاً على الانقراض لكن العلماء نجحوا في زيادة أعداده الى حد ما. أكثر ما يميزه ارتفاعه الكبير وعرض جناحيه البيضاوين واللطخة السوداء في طرفيهما ورقصة التزاوج الجميلة، له صوت مميز ومرتفع جداً.

وأعـاد «لي» الـكلام ببـطءٍ شـديد وهـو يحـاول أن يحتفـظ بصـبره «عنـد مسـتنقع بيكـرز، صدقنـي، لقـد رأيـت بـكل وضـوح الأطـراف السـوداء لأجنحتـه!»

-»وتحـس بأنـك تريـد الرحيـل معهـا» قـال الجـد «وتشـتاق الى الرحيـل حتـى يـكاد قلبـك يتصـدع، عندمـا تسـمع الهديـر مـن فـوق رأسـك، مثـل قطـار شـحنٍ طويـلٍ عظيـم يجتـاز بـك في الليـل..

وارتفع صوته على غير توقع مثل نقيق أجش:

-»تقـول عنـد مسـتنقع بيكـرز؟ غرنـوق نعـاب، نعـاب حقيقـي؟ هـل تحلـف بـالله يـا ولـد؟ أنـا لم أرَ نعابـا منـذ أربعـين عامـاً»

-»لم يبـق في العـالم كلـه غـير ثمانيـة وعشريـن نعابـا. وهـي تطـير جنوبـاً في الخريـف حتـى تكسـاس»

-»وأنـا أيضـا ذاهـبٌ الى الجنـوب» قـال الجـد. «يمكنـك أن تقبـع تحـت الشـمس طـوال الشـتاء أو أن تسـتلقي وتراقـب الأشـياء. إن المـرء ليحـس بتعـب هائـلٍ مـن الاسـتلقاء، بعـد ثمانـين عامـاً»

وتضـاءل صوتـه، ثـم سـكت وتهـاوى في مقعـده وأغمـض عينيـه. فتذكـر «لي» مـا أخبرتـه أمـه «الجـد رجـل طاعـن في السـن وعلينـا أن نجنبـه الانفعـال» وانتابتـه نوبـة مـن الرعـب شـلت أوصالـه. ربـما كان الجـد يحتـضر ربـما قـد مـات بالفعـل..

- «جـدي!» صرخ وقـد خنقتـه العـبرة «اسـتيقظ يـا جـدي! اسـتيقظ!»

واهتـز الجسـد المنكمـش في مقعـده بارتعاشـةٍ متشـجنة، ثـم انتصـب العجـوز قائـماً دون أن يسـتند عـلى ذراع الكـرسي، وقـال بصـوتٍ

جهـوري حـاد:

-» أيها الفتى! يجب أن أراه، أقول لك يجب أن أراه!»

حدق «لي» في حيرة، وبدا كالمأخوذ:

-» لكن أمي تقول

وفقـد صـوت العجـوز نبرتـه الآمـرة القويـة، وتراجـع الى تملـقٍ واهـن.

-» أوه، هيـا يـا فتـى. لـن يرانـا أحـد. أبـوك يعمـل في حـي بعيـد، و»إيلـين» قـد خرجـت الى حفـلٍ للنسـاء في مـكان مـا. يمكـن أن نتسـلل ثـم نعـود بسـهولة «

-» لكنها ثلاثة أميال، وأمي أخذت السيارة «

وتغضن وجه العجوز.

-» لدينا الفرس والعربة الصغيرة. أليس كذلك؟»

-» نعم ولكن العربة متروكة منذ سنين وعدّة الفرس....

ومحـا الغضـب كل أثـر للمداهنـة في تجاعيـد وجـه الجـد، فتنـاول عصـاه مـن جانـب الكـرسي، وصـاح بالغـلام.

-» إمضِ معي يا ولد وإلا سلختُ جلدك!»

فتراجع «لي» نحو الباب وقال يسترضيه.

-»حسناً يا جدي، سأشد «بيسي» الى العربة حالاً»

مـرّ الجـد بلحظـات عصيبـة وهـو يحـاول صعـود العربـة، لكنـه حالمـا اسـتوى في مقعـده خطـف الحبـال مـن يـد «لي» وسـفع كفـل الفـرس العجـوز بأطرافهـا، فأجفلـت «بيـسي» وانطلقـت في خبـبٍ مضطـرب. وحبـس «لي: أنفاسـه، لكـن «بيـسي» أبطـأت بعـد هنيهـةٍ

وأخـذت تتقـدم مُكرَهـةً متثاقلـة فأحـس «لي» ببعـض الراحـة: فلربـما تماسـكت العربـة ولم تتبعثـر الى أشـلاء.

سـارا قليـلاً عـلى طـول الطريـق الممهـد، ثـم انعطفـا نحـو مسـلكٍ جانبـي وعـر يتلـوى عـبر مـرجٍ أجـرد مكشـوف. حـدق الجـد الى الأمـام والتمعـت عينـاه:

-» كـما أخبرتـك يـا فتـى، إنهـا ترحـل الى الجنـوب. أظـن إنهـا تـرى المسيسبي وهـي عـلى ارتفـاع ميـلٍ في السـماء. وأنـا أيضـا أتـوق الى رؤيتـه، وسـأفعل ذلـك يومـا مـا بـكل تأكيـد.»

وتـدلى ذقـن العجـوز نحـو صـدره، وانفلـت الحبـال مـن أصابعـه وكادت أن تسـقط مـن الحاجـز الأمامـي للعربـة لـولا أن «لي» أسرع وتلقفهـا.

-»شـكرا يـا فتـى لأنـك أخرجتنـي مـن البيـت. ربـما يحسـن بنـا أن نعـود الآن. أنـا متعـبٌ، متعـبٌ جـدا»

وضاقت حنجرة الغلام:

-»لقد كدنا نصل يا جدي. يمكنك أن ترى المستنقع»

-»لم يعـد في الدنيـا مـن نعّـاب» غمغـم العجـوز متذمـراً «لقـد رحلـت كلهـا الى الجنـوب»

مـال «لي» بالفـرس عـن الطريـق الـذي عرّتـه آثـار العجـلات وأوقـف العربـة تحـت سـاتر مـن أشـجار الحـور، ثـم سـاعد العجـوز عـلى الترجـل ودس يـده تحـت ذراعـه.

-»هيـا يـا جـدي» قـال «لي» وهـو يسـتحثه «سـوف ننجـح في الوصـول»

وتقدما على مهلٍ من وراء الساتر الجرفي نحو العشب المرتفع الذي يطوق حافات المستنقع. بهرت الشمس عينيهما لكن هواءً بارداً هب من فوق الماء حاملاً معه الرائحة الزنخة للماء الراكد والطين الذي غطته أملاح المعادن.

وتوقف الجد وهو ينوء تحت معطفه الكبير، وتشكى وهو يكاد يبكي:

-»ماذا تفعل بي يا فتى؟».. تعرف ما قالته «إيلين»: لا يفترض بي أن أخرج دون رفقتها»

-»انحنِ يا جدي. انحنِ!»

وارتمى العجوز على ركبتيه ويديه، وعلا صوته في صرير جنوني حاد:

-»أين هو يا ولد؟ أين هو؟»

-»تعال. إنني أرى رأسه»

وتحرك شيء في العشب المرتفع. ومرت ثوانٍ مرتعشة ظل الفتى فيها مستلقيا دون كلام أو حراك. ثم انتفض كأنه عاد الى الحياة وقفز مستويا على قدميه وصاح في صوتٍ هائجٍ.

- «أنظر يا جدي. أنظر!»

واستدار ليمسك بجده، لكن الأخير كان قد نهض بالفعل، وأخذ يحدق في الجسد الأبيض العظيم وهو يندفع بإزاء السماء الشاحبة.

- «يا رب السماء العظيم!»

خرجت الكلمات مثل صرخةٍ قاسيةٍ غريبةٍ امتزجت فيها

النشـوة بـالألم.

- «نعّابٌ يا فتى.. نعّاب!»

ووقفـا سـويةً، الشـيخ والصبـي، وقـد لفّهـما سـحرٌ لا ينتمـي الى هـذا العـالم المنبسـط الرتيـب الـذي يحيـط بهما. وارتفـع الطائـر العظيم في ثبـات، وبـدت الأطـراف السـوداء للجناحـين مثـل خيـطٍ مبهـم يومـض فـوق بيـاض الجسـد الناصـع. حلـق الطائـر في دائـرةٍ كبـيرة ثـم صعّـد عاليـاً فـوق رأسـيهما، ثـم تسـلق سريعـا موغـلاً في السـماء القصيـة، وطـوال دقيقـةٍ أو أكثـر بـدا كأنـه يتـدلى دون حـراك مـن الفضـاء الخـارج عـن تخـوم العـالم، وأخـيراً خبـا البيـاض وذاب في شـحوب السـماء واختفـى الطائـر.

كانـت أصابـع العجـوز تشـد بقـوة عـلى ذراع الصبـي. وتفجـرت الصيحـة المحشرجـة ثانيـةً مـن بـين شـفتيه.

«يا ربّ السماء العظيم!»

كانـت تلكـم الصرخـة مزيجـاً مـن الجـذل والصـلاة، خبـا بعدهـا الضـوء في عينيـه... ثـم انطفـأ.

- «لقد رحل الى الجنوب»

قـال الجـد. وتدلـت أكتافـه، وحـاول أن يشـد معطفـه العظيـم الى جسـده المنكمـش. «إنهـا تجـيء في الليـل فتسـمع لهـا صوتـاً كمثـل الرعـد، وتظلـم السـماء.. وهنـاك المسيسـبي مـن تحـت.. ورائحـة البحـر التـي تأتيـك قادمـة مـن مائـة ميـل...

رافقـت أم «لي» ابنهـا حتـى البـاب وقالـت لـه « إنـه يهـذي « وكانت الدمـوع تترقـرق في عينيهـا وفي صوتهـا.. « إنـه مريـض جـداً... لم يكـن

عليك أن...

وتمالكت نفسها على الفور وهمست له «أخبر أباك أن يأتي بالطبيب حالاً أخبره أن يرسله حالما يلقاه»

وانطلق «لي» يهبط السلالم، هارباً من الحجرة المعتمة التي تتراقص فيها الظلال حيث لا يكسر الصمت الثقيل غير تنفس الجد المضطرب العنيف وما يدمدم من كلمات.

كان الجد مريضاً، مريضاً للغاية، حتى لم يعد قادراً على رفع رأسه من الوسادة، وبدا كأنه لم يعد يبصر شيئاً. لكنه لم يكن يخرّف. لقد كان يعي تماماً ما يقول. كل ما في الأمر إن «لي» هو الوحيد الذي يفهم ما يعنيه. لم يكن الفتى نادماً على ما بدر منه؛ لقد كان سعيداً لأن الجد قد رأى النعّاب، برغم ما حصل.

- «كان يجب أن يراه» قال لوالده في إصرار «كان يجب أن يفعل»

أومأ الأب برأسه موافقاً من وراء الجريدة التي يتظاهر بقراءتها.

- «أعرف يا بنيّ» وأردف وفي صوته نبرة ألمٍ غريبةٍ غير مفهومة «أتمنى لو كنتُ معكما»

غطّ «لي» في النوم وهو على الأريكة، وحين استيقظ بعد وقتٍ طويل اكتشف أنه وحيدٌ في غرفة المعيشة. كان المصباح الزيتي يرسل ضوءه الخافت من فوق المنضدة. نهض، وتيقظ من فوره، فبدا له البيت غريباً موحشاً. وسكنت الأصوات التي أقلقته حتى في نومه.

كان كل شيء يوحي بأن أمراً ما قد حدث. نزلت الأم السلالم في خطى هادئات. كان وجهها جامداً رزيناً فأدرك على

الفـور مـا جـاءت تقـول. داعبـت شـعره بأصابعهـا لتُشـعره بـأن مـا فعـل لم يعـد مهـماً.

- «لقد مات الجد»

قالت له وغصت بالعبرات فأشاحت وجهها عنه.

ولفتهـما لحظـات مـن الألم الممـض. لم يتحمـل سـماع بـكاء أمـه، لكنـه حـين تكلـم أخـيراً اندفعـت الكلـمات مـن حنجرتـه واضحـة منتـصرة

«لقد رحل الى الجنوب!»

الأشياء
د. هـ. لورنس [1]

كانا نصيرين مخلصين للمثالية ينحدران من «نيو أورليانز». التقيا وتزوجا قبل الحرب بعدة سنوات. كان شاباً فارع الطول ذا عينين تتوقدان بالذكاء، قادماً من «كنكتكت»، وكانت هي شابة رزينة صغيرة الجسم ذات مظهر بيوريتاني من ولاية ماساشوستس [2] كلاهما حاصل على قدر متواضع من الثروة التي لم تكن لتزيد على الثلاثة آلاف دولار في السنة، حتى لو جمعتا معا. بيد أنهما كانا حرّين -حرين! آه، الحرية!.. أن تكونا في الخامسة والعشرين

(1) دَيفِد هِربرت لورنس. D. H. Lawrence ولد في 11 أيلول 1885 في إيستوُد، نوتنغهامشاير، إنكلترا. وتوفي في 2 آذار 1930 في «فانس» بفرنسا. مؤلف روايات وقصص قصيرة وأشعار ومسرحيات وكتب رحلات ورسائل. جعلت منه رواياته: أبناء وعشاق 1913، قوس قزح 1915، ونساء عاشقات 1920، واحداً من أكثر الكتاب الإنكليز تأثيراً في القرن العشرين.

(2) البيوريتانية، أو التطهيرية. مذهب مسيحي بروتستانتي ظهر في إنجلترا في عهد الملكة إليزابيث وينادي بالإيمان بالكتاب المقدس مصدراً وحيداً للعقيدة الدينية وبأن من واجب الإنسان أن يكون سلوكه في الحياة مطابقاً لما ورد في الكتاب المقدس وأن تطبق العبادة في الحياة كلها وفي السلوك والنظر إلى شؤون الحياة بما فيها الناحية السياسية بعيداً عما ورثته المسيحية في القرون الطويلة من شعائر شكلية ومظاهر كهنوتية. انتشرت البيوريتانية في أمريكا الشمالية ولاسيما في ولايات شمال شرقي الولايات المتحدة التي كانت تعرف بإنكلترة الجديدة (نيوإنغلند) التي تضم ست ولايات منها ماساشوستس (وعاصمتها بوسطن) وكنكتكت (وعاصمتها هارتفورد).

والسابعة والعشرين، زوجين من المثاليين الحقيقيين يجمعكما حب مشترك للجمال وميل الى «الأفكار الهندية».

أما الآن فقد نزلا الى الأرض من جديد، يشيّعهما حفيف خافت، دون أن يثيرا الكثير من الضجيج. لقد خاب أملهما كرّة أخرى، غير أنهما لم يقرّا بهذا صراحة. لقد خذلتهما «الأفكار الهندية» لكنهما لم يشتكيا حتى الى أحدهما الآخر، لم ينبسا ببنت شفة!

إنهما يعانيان حقاً من بعض الخذلان، لكنهما تحررا، من أعماقهما، من الأوهام. ولقد أدركا ذلك تماماً وإن بشكل ضمني. وعلى الرغم من ذلك تبقى لهم الكثير في هذه الحياة: إيطاليا الحبيبة؛ وتبقت لهما الحرية التي لا تقدر بثمن؛ وتبقى لهما الكثير من «الجمال». أما بشأن امتلاء حياتهما فلم يكونا في تمام الثقة: إن لديهما طفل صغير أحبّاه كما ينبغي للوالدين أن يفعلا، لكنهما تجنبا بمهارة أن يربطا مصيرهما بمصيره أو يبنيا حياتهما على أكتافه. كلا، كلا، إن عليهما أن يعيشا حياتهما الخاصة. لقد ظلت بصيرتهما على قدر من النشاط أمكنهما من ادراك ذلك.

لكنهما لم يعودا في شرخ الشباب، فقد صارت الخمسة والعشرون خمسة وثلاثين، والسبعة والعشرون سبعة وثلاثين، ورغم أنهما ما زالا يحبان إيطاليا- إيطاليا العزيزة، فقد صارا الآن مجرد زوجين من الخائبين. لقد ربحا منها الكثير، بل والكثير جداً في الحقيقة؛ لكنها لم تمنحهما بالضبط، «بالضبط» ما كانا يرجوان منها.

كانت أوربا فاتنة ساحرة، لكنها ميتة، وعندما تعيش في أوربا فكأنك تعيش على الماضي. والأوربيون، بالرغم من جاذبيتهم

المظهرية، لم يكونوا جذابين «حقا». كانوا أُناساً ماديين يفتقرون الى الروح الحقيقية. لم يفهموا نداءات الروح الداخلية لأن تلك النداءات كانت ميتة بدواخلهم. لقد كانوا جميعا ناجين من الحرب. آه! تلك والله حقيقة الأوربيين. إنهم مجرد ناجين، ناجين وحسب.

إنها سويقة فاصولياء رفيعة أخرى[1] ودعامة ساندة ثانية تنهار تحت الكرمة الخضراء اليانعة. لكن الأمر كان شديد القسوة هذه المرة، فقد ظلت الكرمة الخضراء تتسلق في صمت جذع الشجرة الأوربية العجوز أكثر من عشر سنوات- سنوات عشر عظيمة الاهمية، سنوات العمر الحقة.

كان هذان المثاليان يمارسان وجودهما في أوربا، ويعيشان على أوربا وحياة أوربا و»أشياء» أوربا مثل شجيرة عنب في بستان كرم أزلي. لقد أسسا بيتهما هنا، بيتا لا تستطيع أن تؤسس له نظيرا في أمريكا. وكانت كلمة السر عندهما هي «الجمال». استأجرا في الأعوام الأربعة الأخيرة الطابق الثاني من إحدى البنايات القديمة المطلة على نهر الأردو[2]، وهناك اقتنيا كل «أشيائهم». لقد رضي المثاليان رضى عميقا بشقتهم تلك، بغرفها العالية السقف، الهادئة، القديمة الطراز، بشبابيكها المطلة على البحر وأرضياتها السوداء الململمعة وقطع الأثاث الرائعة التي «التقطتاها».

نعم، لقد جرت حياتهما جريا، بسرعة فائقة ودون أن ينتبها، في مسار أفقي. لقد تحول كل منهما الى صيادٍ ضارٍ متوتر «للأشياء»

---

(1) إشارة الى القصة الشهيرة «جاك وحبة الفاصوليا.

(2) الأرنو: ثاني أكبر أنهار إيطاليا. يقع في اقليم توسكاني وسط البلاد ويمر بعدة مدن منها فلورنسا وبيتزا.

التي اقتنياها لهذا البيت. وبينما يتسلق روحاهما نحو شمس الثقافة الأوربية والأفكار الهندية القديمة كانت مشاعرهما تجري في طريق أفقي متشبثة بـ «الاشياء». لم يبتاعا كل تلك الاشياء بالطبع من أجل ذاتها بل من أجل «الجمال». لقد نظرا الى البيت كمكان مؤثث بالجمال، لا بالأشياء. علقت فاليري ستائر رائعة على شبابيك الصالة الطويلة المطلة على النهر؛ ستائر مصنوعة من حرير حيك بدقّة عظيمة، بألوان تتدرج بطريقة أخّاذة بين القرمزي والبرتقالي والذهبي والأسود حتى تصبح محض تألق ناعم شفيف. قلما دخلت فاليري الصالة دون أن تجثو ذهنيا راكعة قبالة تلك الستائر.

- كنوز![1] (كانت تردد) أنها في نظري لكنوز حقيقية.

أما ملفيل فلم تقع عيناه يوما على خزانة الكتب الفينيسية التي تعود الى القرن السادس عشر والدزينتين أو الثلاث من الكتب المنتقاة إلا وأحس بدبيب يسري في عظامه. إنه لقدس الاقداس!

وأما الطفل الصغير فقد تعلم أن يتجنب في صمت وفيما يشبه التطيّر، أيَّ تلامس فظ مع تلك القطع الأثرية القديمة من الأثاث، كما لو كانت أعشاش أفاعٍ نائمة أو ذلك «الشيء» الذي في لمسه الخطر الأعظم: تابوت العهد[2] لقد كان خوفه الطفولي هادئاً، بل وفاتراً لكنه هادئ.

ومع ذلك فإن أي زوج من مثاليي نيوانغلاند لا يستطيع أن

---

(1) في الأصل بالفرنسية "chartres" وتعني وثائق الملكية القديمة

(2) تابوت العهد: تابوت العهد عند اليهود والمسيحيين هو التابوت الذي حُفظت به ألواح العهد، وفقاً للتراث اليهودي. وهذا التابوت وُضع داخل قدس الأقداس ويعاقب من يلمسه بالموت.

يحيا على المجد الغابر لأثاث منزلهما فقط. إن زوجا واحداً على الأقل لم يستطع ذلك بالفعل. لقد اعتادا على خزانة الآنية البولونية الرائعة[1]، اعتادا على خزانة الكتب الفينيسية البديعة وستائر سيينا وبرونزياتها[2] والأرائك الجميلة والمناضد الجانبية الصغيرة والكراسي التي إالتقطاها» في باريس. آه! لقد ظلا يلتقطان الأشياء منذ أول يوم حطا رحالهما فيه على الأرض الأوربية، ولم يزالا كذلك. إنها آخر متعة يمكن أن تقدمها أوربا للأجانب ولمواطنيها أيضا.

وعندما يستقبلان بعض الضيوف الذين يهتزون اعجابا بالجمال الداخلي لمنزل آل ملفيل فإن فاليري وإيراسموس يشعران بأن حياتهما لم تذهب سدى، وبأنهما ما زالا حيين. لكن خلال الصباحات الطويلة عندما يعمل إيراسموس بين الحين والآخر في دراسات عن أدب القرون الوسطى في فلورنسا، وتقوم فاليري بترتيب الشقة، وأثناء الساعات الممتدة التي تعقب الغداء، وفي الأمسيات الطويلة الباردة الثقيلة الوطأة في العادة في البالازو القديم[3]، كانت الهالة التي تحيط بالأشياء تخبو وتموت ولا تعود الأشياء إلا أشياء، كتلا رمادية باهتة تنتصب هنا وهناك الى ما لا نهاية، خرساء لا تنطق ببنت شفة، فيكاد فاليري وايراسموس أن يمقتاها. إن بريق الجمال، شأنه شأن أي بريق آخر، يخبو ويموت

(1) نسبة الى مدينة بولونيا شمال شرقي ايطاليا وهي واحدة من أكثر المدن الإيطالية والأوربية تقدما معيشيا وثقافيا.

(2) مدينة بوسط إيطاليا في إقليم توسكانيا، تشتهر عالميا بموروثها الفني وصناعة الأثاث.

(3) البالازو: مبنى كبير مثل متحف أو قصر أو مبنى سكني يتسم بالفخامة والجلال خاصة في إيطاليا.

إن لم يُغَــذَ.

لم يتوقــف المثاليــان عــن حــب أشــيائهما حبــا جمّــا، لكنهــما كانــا «يمتلكانهــا». والحقيقــة المؤســفة هــي إن الأشــياء التــي تتألــق بحيويــة ســاعة شرائهــا تــكاد تخمــد كليــا في غضــون عــام أو اثنــين، هــذا بالطبــع إن لم يحســدك النــاس عليهــا أو تتلهــف عليهــا المتاحــف. ولم تكــن أشــياء عائلــة ملفيــل –بالرغــم مــن روعتهــا– لتصــل الى ذلــك القــدر مــن النفاســة.

وهكــذا خبــا البريــق ريــدا رويــدا عــن كل شيء، عــن أوربــا، عــن ايطاليــا –الايطاليــون أعزاؤنــا– وحتــى عــن تلــك الشــقة الرائعــة عــلى ضفــاف نهــر الآرنــو.

– ربــاه! لــو كانــت هــذه الشــقة مــن نصيبــي لمــا فكــرت لحظــة واحــدة في الخــروج مــن بابهــا! إنهــا لجميلــة وســاحرة!

إن ســماع كلــمات اعجــاب كهــذه هــو في حــدّ ذاتــه أمــر ذو شــأن، لكــن فالــيري وإيراســموس خرجــا، رغــم ذلــك، مــن بابهــا. بــل إنهــما فــرّا منهــا ليتخلصــا مــن جلالهــا الميــت ومــن هدوئهــا الغابــر الثقيــل كالحجــر

– أتعــرف يــا دك، إننــا نعيــش عــلى المــاضي. «قالــت فالــيري لزوجهــا الــذي اعتــادت أن تناديــه بــدك»

لقــد صمــدا بــضراوة. لم يشــاءا الاستســلام، ولم يرغبــا بالاعــتراف بأنهــما شــارفا النهايــة، لقــد ظــلا طيلــة اثنــي عــشر عامــا أناســا «أحــراراً» يعيشــان حيــاة «مليئــة وجميلــة»، وظلــت أمريــكا بغيضــة إليهــما –ســدوما للماديــة الصناعيــة.

ليس من السهل أن تعترف بأنك شارفت على النهاية. لقد درها الاعتراف بأنهما يتوقان الى العودة، لكنهما قررا على مضض أن يقفلا راجعين «من أجل مصلحة الولد».

لا نستطيع تحمل فكرة مغادرة أوربا، لكن بيتر أمريكي في النهاية، ومن الأفضل له إذن أن يرى أمريكا وهو صغير. «كان آل ملفيل يتحدثان بلكنة وسلوك انكليزيين تماما مع شيء من الفرنسية والإيطالية هنا وهناك.

وخلّفا أوربا وراء ظهريهما، لكنهما حملا معهما كل ما استطاعا حمله، ما ملأ عدداً من الشاحنات في الواقع. كل تلك «الأشياء» الجديرة بالإعجاب التي لا يمكن تعويضها. وحط الجمع في نيويورك: الزوجان المثاليان والصبي والكتلة الهائلة من أوربا التي شحناها معهما.

كانت فاليري تحلم بشقة مريحة، ربما في شارع «ريفرسايد» حيث لم تكن المساكن مرتفعة الأجور مثل شرقي «الحي الخامس» وحيث يمكن لكل أشيائها الجميلة أن تبدو في غاية الروعة. وظلت هي وإيراسموس يتصيدان مسكنا ما، لكن يا للحسرة! إن دخلهما أقل من ثلاثة آلاف دولار في العام، فحصلا.. حسنا، الكل يعرف علام حصلا — على غرفتين ومطبخ صغير و.. «دعنا لا نحل رزمة من الأشياء».

أما القضمة التي اقتطعاها من أوربا فقد أودعاها إحدى مخازن الإيداع مقابل خمسين دولارا في الشهر ثم آويا الى الغرفتين والمطبخ الصغير وهما يتساءلان عما دفعهما لذلك. وكان على إيراسموس،

بالطبع، أن يحصل على عملٍ ما. هذا ما كان مخطوطاً على الجدار، وهذا ما كانا، كلاهما، يتظاهران بعدم رؤيته، وهذا لا غير كان التهديد الغامض الذي لوح به تمثال الحرية فوق رأسيهما: «إن عليك أن تعثر على عمل!»

والتقط إيراسموس الرسالة كما يقولون. لم يزل بمقدوره الحصول على وظيفة مدرسية. فقد اجتاز امتحاناته في جامعة بال بتفوق، وواظب على «أبحاثه» طيلة سنوات مكوثه في أوربا. لكنهما، هو وفاليري، ارتعدا خوفا: وظيفة مدرسية!؟ ألِعالم المدارس الأمريكية؟ رعبٍ مقيم! التخلي عن بلاد الحرية، عن الحياة المليئة الجميلة؟ كلا، كلا!

كان إيراسموس سيبلغ الأربعين في العام القادم. ظلت الأشياء في المستودع حيث تذهب فاليري أحيانا لإلقاء نظرة عليها، وكلفها ذلك دولارا لكل ساعة وغّصة ممزوجة بالرعب. كانت «الأشياء»، الأشياء المسكينة تبدو رثة بالية في ذلك المستودع.

لكن نيويورك لم تكن، على كل حال، كلَّ أمريكا، فهناك الغرب، الغرب الطاهر العظيم. وهكذا رحل آل ملفيل غربا، مع بيتر لكن من دون الأشياء. حاولا أن يعيشا حياة بسيطة في الجبال، لكن أداء واجباتهما اليومية أصبح كابوساً مؤرقا. إن «الأشياء» تبدو حسنة جدا عند النظر إليها، لكن التعامل معها أمر فظيع، حتى لو كانت جميلة: أن تستحيل الى عبد لأشياء حقيرة، أن تحافظ على الموقد مشتعلا، وتطهو الطعام وتغسل الصحون وتحمل الماء وتنظف الأرضية؛ الرعب المطلق لعداء قذر للحياة.

هناك في الجبال حلمت فاليري بفلورنسا والشقة الضائعة وخزانتها البولونية وكراسي عصر لويس الخامس عشر، وأكثر من ذلك بـ «كنوزها».. ستائرها الثمينة الملقاة هناك في نيويورك، مقابل خمسين دولارا في الشهر.

ثم جاء لإنقاذهما صديق مليونير عارضا عليهما بيتاً صغيراً على ساحل كاليفورنيا.

كاليفورنيا! حيث تولد الروح من جديد! وانتقل المثاليان في سعادة الى مكان أبعد قليلا الى الغرب، متشبثين بمساند كرم جديدة للأمل، لكنهما اكتشفا أنها مساند من قش!

كان بيت المليونير مؤثثاً بشكلٍ ممتاز، وربما كان يقدم أكبر ما يمكن من توفير الجهد: تدفئة وطباخا كهربائيين، مطبخا مغلفا بالميناء الأبيض والرمادي. لا شيء هنا مما يولد القذارة باستثناء الكائن البشري. وخلال ساعة واحدة أو أقل تخلص المثاليان من أعبائهما. لقد عادا «حرّين»، حرين في إصغائهما الى المحيط الهادئ العظيم وهو يلطم الشاطئ، وحرين وهما يشعران بروح جديدة تملأ جسديهما.

ولكن يا للحسرة! لقد كان المحيط الهادئ العظيم يصفع الشاطئ في وحشيةٍ بالغةٍ كريهة، وكان هو نفسه قوة متوحشة! أما الروح الجديدة فبدلاً من أن تتسلل الى جسديهما برقة وعذوبة فقد بدت وكأنها لا تفعل شيئاً سوى أن تنهش الروح القديمة وتطردها في قسوة خارج جسديهما.

أن تشعر بأنك سجين في قبضة أكثر القوى الوحشية عمى

وتحطيماً، أن تشعر بأن روحك المثالية المباركة تُنهَشُ نهشاً، ولا تخلف مكانها غير القلق والتوتر؛ حسناً، ليس هذا بالأمر الجيد!

بعد حوالي تسعة أشهر هجر المثاليان الغرب الكاليفورني. لقد كانت تجربة عظيمة لكليهما وقد سعدا بممارستها، لكن الغرب، في نهاية المطاف، لم يكن المكان المناسب لهما. وقد أدركا ذلك. كلا، من الأفضل لمن يريد الحصول على روح جديدة أن يحصل عليها. أما هما، فاليري وإيراسموس ملفيل فقد كانا يريدان فقط أن يطورا قليلا روحهما القديمتين، لكنهما لم يشعرا، على أية حال، بتدفق أية روح جديدة الى داخلهما، بل بالعكس تماما. وهكذا، وهما يتحسسان الثقب الصغير الذي حدث في رأسمالهما المادي، عادا الى ماساشوستس وقاما بزيارة والدّي فاليري، مصطحبين الصبي.

رحّب الجدّان بالطفل –الولد المسكين المهجّر– وكانا فاترين بعض الشيء مع فاليري. أما مع إيراسموس فقد كانا فاتِرَين تماماً. أخبرت الأم ابنتها ذات يومٍ بأن على إيراسموس أن يجد عملا ما حتى تتمكن فاليري أن تعيش عيشة كريمة. حاولت فاليري أن تذكّر أمها في تباهٍ بالشقة الجميلة على ضفاف الآرنو، وبالأشياء «البديعة» التي أودعاها في نيويورك، وبـ «الحياة المقنعة الرائعة» التي قضتها مع إيراسموس. غير أن المرآة العجوز صارحتها بأنها لا تعتقد بأن حياة ابنتها كانت على القدر الحالي من الروعة!: دون مأوى، مع زوج متبطل في الاربعين وطفل ينبغي تعليمه ورأسمال آخذ بالترنح. الأمر برمته يبدو لها نقيضاً للروعة. فليقبل إيراسموس بوظيفة ما في إحدى الجامعات.

- «أية وظيفة؟» قاطعتها فاليري.

- «أيـة وظيفـة يمكـن الحصـول عليهـا بالاسـتناد الى علاقـات والـدك ومؤهــلات إيراســموس» أجابــت الأم. «ويمكــن لــك أن تفرجــي عندهـا عـن كل أشـيائك الثمينـة تلـك، وأن يكـون لديـك منـزل جميـل حقـاً يمكـن أن يفخـر أي شـخص في أمريـكا بزيارتـه. إن أثاثـك يلتهـم الآن مـواردك. وأنتـم تعيشـون كالجـرذان في جحورهـا، دون أن تملكـوا مكانـاً تـأوون إليـه»

كان ذلـك هـو الحـق بعينـه، بـدأت فاليـري تتحـرق شـوقاً الى منـزل تقيـم فيـه مـع «أشـيائها». لقـد كان في مقدورهـا بالطبـع أن تبيعهـا بمبلـغ لا يسـتهان بـه. ولكـن مـا مـن قـوة يمكـن أن ترغمهـا عـلى فعـل ذلـك. فمهــا تخلّـت عــن أمـور، أديـان، ثقافـات، قـارات وآمـال، فـإن فاليـري لـن تتخـلى «أبـداً» عـن أشـيائها، تلـك التـي جمعتهـا هـي وإيراسـموس بــكل عشــق وهيــام، وإليهــا دون مــا عداهــا تســمّرت والتصقــت. لكنهـا، هـي وإيراسـموس، لم يرضيـا بالتخـلي عـن تلـك «الحريـة»، عـن تلـك الحيـاة الممتلئـة الجميلـة التـي آمنـا بهـا.

لعــن إيراسـموس أمريـكا، لم يكــن «يريــد» أن يكــدح كــي يعيــش. لقـد تشـوق الى أوربـا. تـرك «المثاليـان» الصبـي في رعايـة والـدي فاليري وأبحـرا مـن جديـد صـوب أوربـا. وعرّجـا عـلى نيويـورك حيـث دفعـا دولاريــن ليتفرجــا لســاعة قصــيرة مريــرة عــلى «الأشــياء». ســافرا في درجـة الطـلاب، وبعبـارة أخـرى في الدرجـة الثالثـة. كان دخلهـا الآن أقـل مـن ألفـي دولار بـدلاً مـن ثلاثـة، ولهـذا يمـا عـلى الفـور شـطر باريـس، باريـس الرخيصـة الأسـعار. غـير أن أوربـا كانـت هـذه المـرة

فشلهما الذريع.

- «لقد عدنا الى أوربا كما يعود الكلب الى قيئه» قال إيراسموس» لكن القيء نفسه أصابه التعفن هذه المرة!

واكتشف الآن أنه لا يستطيع أن يطيق أوربا. لقد أرهقت كل عصبٍ في جسده. صحيح أنه كان يكره أمريكا بنفس القدر، لكن أمريكا كانت أفضل ولو بقدر أنملة من هذه القارة التعيسة التي تأكلها القذارة، والتي لم تعد حتى رخيصة كما كانت.

قامت فاليري، وقلبها على أشيائها -إذ أنها صارت فعلا تتحرق شوقاً الى تحريرها من ذلك المستودع الذي سلخت فيه ثلاثة أعوام استهلكت خلالها ألفي دولار- قامت بالكتابة الى أمها قائلة إن إيراسموس سيعود من جديد إذا حصل على عمل مناسب في أمريكا. كان إيراسموس الآن، وهو في حال من الإحباط والغضب يدفعه الى مشارف الجنون، يتسكع في أرجاء إيطاليا في زي من الاملاق وقد بليت اكمام سترته، صابا جام حقده على كل شيء.

وحين عثروا له على وظيفة في جامعة كليفلاند لتدريس الثقافات الفرنسية والإيطالية والإسبانية صارت عيناه اكثر انطماراً وصغرا، وأصبح وجهه المستطيل المنهك أكثر حدة وأقرب شبها، في غضبه العارم المحير، الى وجوه الجرذان. كان في الاربعين من عمره، وكانت الوظيفة تتدلى فوق رأسه.

- أعتقد بأن من الافضل لك يا عزيزي أن تقبل بالوظيفة. إنك لم تعد تهتم بأوربا فهي، كما تقول، ميتة وزائلة. إنهم يعرضون

علينا منزلا على نفقة الكلية، وتقول أمي إنه يتسع لكل أشيائنا. أظن أن علينا أن نبرق بالموافقة.

حملق فيها مثل فأر محاصر، حتى إن المرء ليكاد أن يرى شاربي فأر يبرزان من جانبي أنفه المدبب!

- «هل أرسل البرقية يا عزيزي؟» سألته فاليري فدمدم قائلا:
- «أرسليها!»

فخرجت وأبرقت.

لقد أصبح إنسانا مختلفا، أكثر هدوءا وأقل توترا بكثير. لقد تخلص من العبء الذي أثقل كاهله. إنه الآن داخل القفص! لكنه عندما ينظر الى مداخن المصانع العملاقة في كليفلاند، الممتدة مثل غابات حالكة عظيمة، والى الشلالات الصغيرة المتدفقة من معادن حمراء وبيضاء من شدة التسخين، والى البشر الذين يبدون إزاءها كالأقزام، والى ضجيجها الذي يصم الآذان، فإنه يلتفت الى فاليري ليقول لها:

- «قولي ما تشائين يا فاليري، لكن هذا هو أضخم شيء يمكن للعالم الجديد أن يعرضه علينا!»

وعندما يكونان في منزلهما الصغير الحديث الذي قدمته لهما الجامعة وسط تلك البقايا الرثة الكئيبة من أوربا: الخزانة البولونية، رفوف الكتب الفينيسية، الكراسي العائدة لأسقف رافينا، المناضد الجانبية من عصر لويس الخامس عشر، الستائر «الكنوز» والمصابيح البرونزية من سيينا وكلها، كلها مصفوفة مرتبة، وكلها بالية وشديدة الغرابة وتصدم من يراها، وعندما يستقبل المثاليان

نفـرا مـن الضيـوف الفاغـري الأفـواه فـإن إيراسـموس يبـدي أفضـل ما لديـه مـن قواعـد السـلوك الأوربي ولكـن في مـودّة وحـرارة أمريكيتـين، وتـروح فالـيري تتـصرف مثـل خـيرة سـيدات المجتمـع. ولكـن بالرغـم مـن ذلـك «نحـن نفضـل أمريـكا» عندهـا كان إيراسـموس ينظـر بعينيـه الغريبتـين الفأريتـين الحادتـين ويقـول.

«أوربـا هـي المايونيـز مـن غـير شـك، لكـن أمريـكا تقـدم سرطـان البحـر اللذيـذ القديـم. أليـس كذلـك؟»

– «دون شك»

تجيب باقتناع فينعم النظر اليها.

إنـه الآن داخـل القفـص، لكنـه مـكان أمـين. أمـا هـي فقـد وجدت أخـيرا، مـن دون ريـب، نفسـها الحقيقيـة: لقـد حصلـت على الأشـياء.

وبالرغـم مـن ذلـك فقـد بـرزت مـن فـوق أنفـه نظـرة غريبـة، مدرسـية، شريـرة، مجبولـة مـن تشـكك خالـص.

لكنه أحب سرطان البحر!

شارة الشجاعة القرمزية
ستيفن كرَين[1]

تراجع الفتى عن الرتل المتحرك حتى غاب الجندي ذو الأسمال عن ناظريه، ثم عاود المسير مع الآخرين، لكنه وجد

(1) Stephen Crane 1900 1871 قاص وروائي وشاعر وصحفي أمريكي. أشتهر بروايته الأولى (ماغي-فتاة الشوارع-1893) التي نشرها تحت اسم مستعار نظرا لجرأتها الشديدة في ذلك الحين. كانت تلك الرواية أشبه بدراسة تتسم بالتعاطف لحياةِ فتاةٍ فقيرة تنحدر الى البغاء وتنتهي الى الانتحار.
عمل كرين بعدها لفترة صحفيا مغموراً (بالقطعة) حتى عام 1895 عندما نشر مجموعته الشعرية الأولى (الفرسان السود) الى جانب روايته الشهيرة (شارة الشجاعة القرمزية) فجلبتا له على الفور شهرة عالمية. تعد هذه الرواية الثانية غوصا انطباعيا بارعاً في حياة جندي شاب يسعى الى معرفة الحقيقة في خضم المعارك الطاحنة للحرب الأهلية الأمريكية، يتغلب البطل خلالها على جبنه وخوفه وغروره وأوهامه ليكتشف المعاني الحقيقية للشجاعة والتواضع والحكمة.
في السنوات اللاحقة من عمره القصير جرب كرين حظه كمراسل حربي فأبحر الى كوبا لينقل أنباء العصيان المسلح فيها، غير أن السفينة التي أقلته غرقت بما فيها من رجال وعتاد ولم ينج منها إلا بضعة أشخاص أفلحوا في الوصول الى البر، ومنهم الكاتب الذي خرج من هذه التجربة المرعبة بواحدة من أعظم القصص القصيرة العالمية (القارب المفتوح).
لكن كرين سرعان ما قرر الإبحار الى اليونان كمراسل حربي خلال الحرب التركية-اليونانية، ليعود من جديد في العام التالي الى كوبا لنقل أخبار الحرب الأمريكية-الإسبانية التي دارت رحاها هناك، ثم يقفل بعدها عائداً الى انكلترا حث توفي فيها بعد أشهر قلائل متأثرا بمرض السل الذي فاقمته إصابته بالملاريا في كوبا.
حاول كرين في روايته (شارة الشجاعة القرمزية) التي ترجمنا هنا واحدة من أهم وأشهر مشاهدها، أن يرسم صورة نفسية معمقة لمشاعر الخوف وقلق الموت عند شخصياته، وكانت هذه الرواية أول عمل روائي غير رومانسي عن الحرب الأهلية وقد قلبت رأساً على عقب (والى الأبد) كثيراً من الأساليب والمعتقدات التقليدية عن الأدب القصصي الحربي. وقد كان السر في نجاح كرين كمراسل حربي وصحفي وقاص وروائي وشاعر يكمن في تحقيقه لذلك التوتر والانشداد ما بين السخرية والرثاء، بين الوهم والواقع، وبين الأمل واليأس.

نفسه في وسط حشدٍ من الجرحى المضرجين بالدماء.

كان سؤال الجندي ذي الأسمال قد جعله يشعر بأن عاره صار مكشوفاً للعيان، فاخذ يختلس النظرات الى الجانبين ليتأكد إن كان الرجال يبصرون أحرف الخطيئة الموشومة بالنار على جبينه. كان ينظر أحياناً الى الجنود المصابين بعين الحسد، ويعدُّ الرجال الذين تمزقت أجسادهم أناساً سعداء على نحوٍ خاص. وتمنى لو امتلك مثلهم جرحاً ما، شارةً قرمزية للشجاعة.

كان الجندي الشاحب كالأشباح الذي يسير الى جانبه يلُوح مثل تأنيبٍ منتصبٍ على قدمين، وكانت عيناه تحدقان في ثبات نحو المجهول، وأثار وجهه الرمادي المخيف انتباه الجمع فأخذ الرجال يبطئون كي يجاروا خطواته الحزينة، ويسايرونه، يناقشون مصيبته، يسألونه، ويمنحونه النصح، لكنه واظب على طردهم بعناد، والتلويح بيده كي يتركوه وشأنه. وأخذت الظلال تزداد عمقاً في وجهه، وبدت شفتاه المطبقتان كأنهما تحبسان أنّاتِ يأسٍ عظيم. وبدا في حركات جسده ضربٌ من التخشب، مثل من يبذل حرصاً شديداً ليمنع آلام جراحه من الاستيقاظ. وكان وهو يغذُّ الخطى كمن يبحث طوال الوقت عن مكانٍ بعينه، مثل إنسان يمضي ليختار قبراً.

وقفز الفتى كالديغ وقد أثاره شيءٌ ما في مظهر الرجل وهو يبعد الجنود الجرحى الحادبين عليه فصرخ في هلعٍ، وتقدم نحوه مترنحاً ووضع يده الراعشة على كتفه، وعندما أدار الرجل وجهه الشمعي نحوه على مهلٍ صرخ ملتاعاً:

-»يا إلهي! جيم كونكلِن!»

فرسم الرجل الطويل ابتسامةً باهتةً على وجهه وقال:

-»أهلاً هنري»

تأرجح الفتى منقِّلاً ساقيه وحدق في ذهول، وأخذ يتمتم ويتلعثم:

-»آهٍ يا جيم.. آهٍ يا جيم.. آهٍ يا جيم.. آهٍ يا جيم!»

أخرج الجندي الطويل كفه المدماة وقد امتزج عليها خليط من دمٍ أسود قديم ودمٍ قانٍ جديد.

- «أين كنتَ يا هنري؟» تساءل في صوتٍ رتيب «ظننتُ أنك قُتلتَ. لقد كان يوماً عصيباً. لقد خفتُ كثيراً»

واصل الفتى نواحه:

«آهٍ يا جيم.. آهٍ يا جيم..»

«أنت تعرف» قال الجندي الطويل «لقد كنتُ هناك»

وأومأ بصعوبة «يا إلهي، أي سيركٍ كان هنالك! ولقد اصِبتُ، لقد أُصِبتُ. نعم يا فتى لقد أصبت»

وراح يؤكد هذه الحقيقة بطريقةٍ حائرةٍ، وكأنه لا يعرف كيف حدث الأمر

ومد الفتى يديه الراجفتين كي يساعده، لكن الجندي الطويل مضى قدماً بإصرار وكأن شيئاً ما يدفعه دفعاً. والآن وقد صار لدى الجندي الطويل من يرعاه، فقد كف الجرحى الآخرون عن إبداء الكثير من الاهتمام، وانكفأوا ثانيةً يجرجرون مآسيهم الشخصية نحو الخطوط الخلفية.

وفجـأةً، وأثنـاء سـيرهما، تملـك الجنـدي الطويـل خـوفٌ عظيـم، واسـتحال وجهـه الى مـا يشـبه الصلصـال، فتشـبث بـذراع الفتـى وأدار النظـر حولـه كـما لـو كان يخشـى مـن يسـترق السـمع اليـه، ثـم راح يتحـدث هامسـاً مرتجمـا:

- «أقـول لـك مـا الـذي أخشـاه يـا هنـري. أقـول لـك مـا الـذي أخشـاه. أنـا أخشـى أن أسـقط، ثـم، أنـت تدري-عربـات المدافـع اللعينـة- سـوف تدوسـني. هـذا مـا أخـاف منـه...

فصاح به الفتى في هستيريا:

«سـوف أعتني بـاك يـا جيـم! سـأعتني بـك! أقسـم بـالله أنني سـأفعل!»

«حقاً يا هنري؟» تضرع اليه الجندي الطويل.

«نعم.. نعم.. أقول لك، سأعتني بك يا جيم»

أكـد الفتـى متخبطـاً في كلامـه وقـد غـص بالعـبرات. لكـن الجندي الطويـل واصـل التوسـل في صغـار. وتعلـق بـذراع الفتـى كالأطفـال. وتقلبـت عينـاه في صحـراء خوفـه.

«لقـد كنـتُ دائـماً صديقـا وفيـا لـك، أليـس كذلـك يـا هنـري؟ لقـد كنـت دائـما رفيقـا ممتـازا لـك، أليـس كذلـك؟ وليـس هـذا بالطلـب الكبـير، أليـس كذلـك؟ أن تسـحبني فقـط خـارج الطريـق؟ كنـت سـأفعل هـذا مـن أجلـك لـو أنـك طلبتـه منـي، أليـس كذلـك يـا هنـري؟»

وتوقف منتظرا رد صديقه في تلهفٍ يثير الشفقة.

وتملـك الفتـى حـزن عظيـم، فأخـذ ينشـج بدمـوعٍ سـخينة،

وجاهد كي يظهر إخلاصه، لكنه لم يقدر إلا على بعض الإيماءات الخرقاء. غير أن الجندي الطويل نسي فجأةً كل مخاوفه. وعاد من جديد شبحاً متجهماً منتصباً. ومضى يغذُّ السير بوجه متحجر. وتمنى الفتى لو أن صديقه استند عليه، لكن الأخير ظل يهز رأسه ويحتج بغرابة

-»كلا.. كلا..كلا.. أتركني يا فتى، اتركني..

وثبتت عيناه من جديد على المجهول. كان ثمة هدف غامض يدفعه الى الحراك، وذهبت أدراج الرياح كل محاولات الفتى لمساعدته.

-»كلا، كلا، اتركني وشأني، أتركني يا فتى..

واضطر الفتى الى الانصياع. وفي تلك اللحظة سمع صوتاً يهمس قرب كتفيه. فالتفت فإذا هو صوت الجندي ذي الأسمال:

-»يجدر بك إبعاده عن الطريق يا رفيقي. هناك بطارية مدفعية تنحدر في طريقها الينا، ولسوف تسحقه لا محالة. إنه على أية حال هالك خلال خمس دقائق كما ترى. من الأفضل أن تخرجه من الطريق. من أين يأتي بكل هذه القوة بحق الجحيم؟!»

-»العلم عند الله»

صاح الفتى وهو يهز يديه دون حول. وهرول على الفور وأمسك بذراع الجندي الطويل.

-»جيم، جيم» قال متلطفاً «تعال معي»

حاول الجندي الطويل أن يتخلص منه لكنه كان أضعف من أن يفعل.

-»هاه!» قال في بلاهةٍ وحدّق بالفتى لهنيهة. ثم تحدث أخيراً وكأنه يدرك بالكاد ما يقال:

-»أوه! الى الحقول؟ أوه!»

وانطلق دون هدى خلال الأحراش، والتفت الفتى فأبصر الركاب المندفعين والمدافع المترجرجة للبطارية القادمة، لكن صرخةً ثاقبة من الرجل ذي الأسمال أجفلته:

-»يا إلهي! إنه يركض!»

والتفت الفتى مسرعاً فأبصر صديقه يركض مترنحاً متعثراً نحو أجمة صغيرة. وكاد قلبه يثب من صدره لهذا المشهد فصاح متوجعاً، وبدأ هو والرجل ذو الأسمال بملاحقته. وانطلق الجميع في سباق شاذ غريب. وعندما أدركه الفتى أخذ يناشده بكل ما جعبته من كلمات:

-»جيم، جيم، ماذا تفعل؟ ما الذي يدفعك لفعل هذا. سوف تؤذي نفسك»

ولكن وجه الرجل الطويل ظل على تصميمه، وظل يحتج بطريقة بليدة وعيناه ثابتتان على المكان الغامض التي تنتهي اليه آماله.

-»لا، لا تلمسني! أتركني يا فتى! أتركني يا فتى»

وارتجف الفتى وغمره الخوف والدهشة، وتهدج صوته وهو يسأله:

-»الى أين تذهب يا جيم؟ ما الذي تنويه؟ الى أين تذهب؟ ألا تخبرني؟»

وتلفت الرجل الطويل مثل طريدةٍ حاصرها صيادون لا يعرفون الرحمة، واضطرمت عيناه بتوسل مُلحّ.

-»أتركني يا فتى، ألا تستطيع؟ أتركني لدقيقة واحدة«

وتراجع الفتى وقد غمرته الحيرة.

-»لماذا يا جيم؟ ما بك؟«

واستدار الرجل الطويل ومضى وهو يترنح بشكل خطير، وتبعه الفتى والجندي ذو الأسمال وهما يتلصصان مثل من يخشى سوطاً يرده على الأعقاب، وكانا يشعران بعجزهما عن مواجهته ثانية. وأحسا بأنهما يتهيآن لاحتفال مهيبٍ حزينٍ.

كان في حركات الجندي التعيس شيء أقرب الى طقسٍ ديني لرجل نذر نفسه لعقيدةٍ وحشية مجنونة تمتص الدماء وتنتزع الأشلاء وتسحق العظام. وتراجعا وقد هيمن عليهما الخوف والخشوع، وكأنه يحمل بين يديه سلاحاً رهيباً فتاكاً.

وشاهداه أخيراً وقد توقف، ثم انتصب دون حراك. وحين هرعا اليه أبصرا وجهه وقد اكتسى تعبيراً ينم عن أنه وجد أخيراً ذلك المكان الذي جاهد لبلوغه. وانتصب بجسمه الهزيل، وتدلت يداه الملطختان بالدماء الى جانبيه دون حراك. كان ينتظر في صمت شيئاً جاء الى هنا من أجله. كان في الموعد تماماً.

وتوقفا منتظرين، ومرت برهة من الصمت. وأخيراً ارتفع صدر الجندي المنكود في حركة متشنجة ثم ازدادت الحركة عنفا وكأن حيواناً حبيساً يرفس ويركل كي يخرج من بين أضلاعه. وتلوّى الفتى من الألم وهو يرى صاحبه يختنق ببطء، وحين أدار

الأخير عينيه نحوه أبصر فيهما شيئاً جعله ينهار الى الأرض وهو يُعوِل، ورفع صوته في نداءٍ أخير.

-»جيم، جيم، جيم..

وران صمتٌ يملؤه الترقب. وفجأة تخشّب الجسد واستقام، ثم خضّته قشعريرة طويلة، وحدق الرجل في الفضاء، وأبصرا في أخاديد وجهه المتألم المريع مسحةً من جلالٍ عميق.

وشيئاً فشيئاً زحفت عليه هالة من غرابةٍ لفته تماماً. ولوهلة قصيرة دفعته ارتجافة ساقيه الى ما يشبه رقصة بدائية بشعة، وتطوحت يداه من حول رأسه في ضربات متتابعة وكأنها حركات جني مندفع. وتمطى جسده الطويل الى أقصى ارتفاعها وسُمع صوت تمزقٍ خافت، ثم مال الجسد الى الأمام، في بطء واستقامة، مثل شجرةٍ هاوية، ودفعه التواء خاطف في العضلات الى أن يرتطم كتفه الأيسر بالأرض أولاً وبدا جسده وكأنه يرتد عن الأرض قليلاً ثم يهمد.

-»يا إلهي!» صاح الجندي ذو الأسمال.

كان الفتى يتفرج مسحوراً ذاهلاً على هذا الموعد الاحتفالي. وتلوى وجهه مع كل تبريحة ألم تخيلها وهي تعتصر رفيقه المحتضر وقفز منتصباً ثم تقدم منه، وحدق في الوجه الشبيه بالصلصال، والفم الفاغر والأسنان التي انكشفت عن ضحكةٍ غريبة. وحين انحسرت طيّة سترته أبصر ذلك الجانب من جسده وكأن ذئابا ضارية قد نهشته نهشاً. واستدار الفتى نحو ساحة المعركة في غضبٍ مستعر مفاجئ. وهز قبضته مثل من

شرع في إلقـاء خطبـةٍ غاضبـة:

-»الى الجحيم..!«

والتصقـت الشـمس الحمـراء في عـرض السـماء مثـل قطعـة مـن البسـكويت.

موت في دلهي
براساد كاملشوار[1]

غلالــة مــن الضبــاب تغطــي كل شيء. لقــد تجــاوزت التاســعة صباحــاً، غــير أن دلهــي مازالــت أســيرة الضبــاب. الشــوارع مبتلــة، والأشــجار نديّــة، والرؤيــة غائمــة. أمــا صخــب الحيــاة وضوضاؤهــا فتتبــدى في الأصــوات، الأصــوات التــي تمــلأ الآذان. إنهــا تــأتي مــن كل أرجــاء المنــزل. هــا هــو خــادم آل فاشــواني قــد أوقــد، كــما في كل يــوم، المدفــأة التــي بوســعك ســماع أزيزهــا مــن وراء الجــدار. وفي الغرفــة المجــاورة، يلمِّــعُ آتــول مافــاني حــذاءه. وفي الأعــلى يضــع السردارجــي[2] دهــن التثبيــت الملمِّــع عــلى شــاربيه، وخلــف ســتارة نافذتــه يومــض مصبــاح كــروي مثــل لؤلــؤة عملاقــة. الأبــواب كلهــا موصــدة والشــبابيك كلهــا مســدلة الســتائر، لكــن جلبــة الحيــاة تــتردد في أرجــاء البنايــة. وفي الطابــق الثالــث كان فاشــواني قــد أغلــق بــاب الحــمام وأدار صنبــور المــاء.

تمــضي الحافــلات خــلال الضبــاب، وأنــين عجلاتهــا الثقــال يدنــو ثــم يخبــو في البعيــد. عربــات الركشــو[3] تندفــع في طيــش. أحدهــم ينــزل

---

(1) Kamleshwar Prasad Saxena قــاص وكاتــب ســينمائي وتلفزيــوني بــارز وأحــد رواد القصــة الحديثــة في الهنــد، ولــد عــام 1932 وتــوفي عــام 2007

(2) الســردار: وتعنــي القائــد أو المقــدم وتطلــق عــلى صاحــب المكانــة السياســية أو العســكرية، وكثــيرا مــا يضــاف المقطــع «جــي» الى بعــض الأســماء والألقــاب لمزيــد مــن التعظيــم.

(3) عربات الركشو rickshaw عربات مغطاة ذات عجلتين يجرها إنسان أو تربط الى دراجة.

عتلة عداد سيارة أجرة توقفت للتو، وجرس الهاتف يرن في عيادة الطبيب في البناية المجاورة، وثلة من الفتيات الذاهبات الى العمل يجتزن الزقاق الخلفي.

البرد قارس. وفي الشوارع المرتجفة تشق السيارات والحافلات طريقها في سحب الضباب وهي تطلق العنان لأبواقها. أما الأرصفة فهي تعج بالسائرين، لكن كلا منهم (وقد تلفع بالضباب) يبدو مثل ندفة من القطن تذروها الريح. وكانت تلك الندف من القطن تتقدم في صمت نحو بحر الضباب ذاك.

الحافلات مكتظة بركابها، بعضهم يرتمي على المقاعد الباردة وسط شخوصٍ معلقة من الأذرع العرضية الممتدة مثل إيقونات للمسيح بيد أن قضبان الحافلة اللامعة المتجمدة حلت محل المسامير المغروسة في الراحات.

وكان ثمة موكب جنائزي يتقدم على مهل من أقصى الشارع.

لا بد أنها الجنازة التي قرأتُ عنها قبل قليل في الجريدة: «توفي مساء اليوم في مستشفى إروِين السيد سيث ديوانجاند، رجل الأعمال المحبوب البارز. وقد نقل جثمانه الى منزله، وسوف تشيع الجنازة في التاسعة من صباح الغد في شارع اريا ساماجا المؤدي الى ميدان بانجكوين لإحراق الموتى حيث تقام المراسيم النهائية»

لا بد أن هذا هو نعشه الذي يتقدم من نهاية الشارع. ثمة مجموعة من الناس يتدثرون باللفاعات ويعتمرون القبعات يسيرون خلفه بصمت وبطء. لا يمكن رؤية كل التفاصيل بوضوح.

هناك طرقة على بابي. وضعت الصحيفة جانباً وفتحت. إنه

آتـول مافـاني واقفـاً عـلى البـاب:

«عنـدي مشـكلة يـا صديقـي. لم يـأت أحـد ليأخـذ الثيـاب للكـي. هـل يمكننـي اسـتعمال مكواتـك؟»

تنفسـت الصعـداء حـين سـمعت كلـمات آتـول، فقـد كنـت خائفـاً مـن أن يسـألني إن كنـت سـألحق بموكـب التشـييع. ناولتـه المكـواة عـلى الفـور سـعيداً بأنـه لا يفكـر إلا بِكـي بنطلونـه ثـم الانطـلاق في جولـة عـلى السـفارات. لقـد كنـت خائفـاً، منـذ أن قـرأت خـبر وفـاة سـيث ديوانجانـد في الجريـدة، مـن ظهـور أحدهـم ليقـترح عـلي الانضـمام الى الموكـب برغـم الـبرد الشـديد. كان كل مـن في البنايـة عـلى معرفـة جيـدة بـه، وكلهـم أنـاس متكلفـون يبالغـون في إظهـار الدماثـة.

يهبـط خـادم السردارجـي السـلالم في جلبـة ويفتـح البـاب ويهـم بالخـروج فأصيـح بـه كـي أزيـد اطمئنـاني:

«ضارما ! الى أين؟» وعندما يجيبني:

«ذاهـب لـشراء الزبـدة للسردارجـي» أسرعُ بإخـراج النقـود وأطلـب منـه أن يأتينـي ببعـض السـجائر.

السردارجـي يرسـل في طلـب الزبـدة لإفطـاره، وهـذا يعنـي، أنـه هـو الآخـر، لا يخطـط للانضـمام الى موكـب الجنـازة، الأمـر الـذي زادني اطمئنانـاً: وبـما أن كلاً مـن آتـول مافـاني والسردارجـي لا ينويـان الذهـاب فـإن الأمـر مفـروغ منـه بالنسـبة لي. هـذان السـيدان عـلاوة عـلى آل فاشـواني كانـوا أكثـر منـي تـردداً عـلى منـزل سـيث ديوانجانـد، أمـا أنـا فلـم أزره إلا في أربـع أو خمـس مناسـبات. إذا لم يكونـوا يفكـرون في الذهـاب فـإن السـؤال عـن ضرورة ذهـابي خـارج

ملـاق البحـث تماماً.

وظهـرت السـيدة فاشـواني في الشرفـة الأمامية، وعلى وجهها اجـذاب مسحة مـن شـحوبٍ غريب، ولمسة مـن حمـرةٍ تخلفت عـن احمر الشفاه الـذي وضعته مساء الأمس. لم تكـن ترتـدي غير «روب» سرلي وقد عقدت خصلات شعرها الى الأعلى. «حبيبـي» رنَّ صوتها «أحضر لي معجون الأسنان رجاءً»

وازداد اطمئناني. لا بـد أن آل فاشـواني هـم أيضاً لـن يحضروا المراسيم.

ومن بعيد، عبر طريق آريا ساماج، يدنو الموكب على مهلٍ..

ويعـود آتـول مافـاني ليرجـع المكـواة، فآخذهـا منـه وأهـم بإغـلاق البـاب، لكنـه يدخـل ويقـول «هـل سـمعت بخـبر مـوت سـيث ديوانجانـد بالأمـس؟»

«لقـد قـرأت الخبر في الصحيفـة للتـو» أجبتـه بـبرود محـاولا قطـع الطريـق عـلى مزيـد مـن الحديـث عـن الموضـوع. وجـه آتـول يلمـع مـن النظافـة، لا بـد أنـه قـد حلـق ذقنـه قبـل قليـل.

«لقد كان فعلاً رجلاً ممتازا، ذلك الديوانجاند»

لـو استمرت الملاحظـات عـلى هـذا المنـوال فسـوف يترتـب عـلي التـزام أخلاقـي بالانضـمام الى موكـب الجنـازة، ولهـذا أسرعـت بالسـؤال «مـاذا حـدث بشـأن عملـك ذاك؟»

«لقـد أوشـكت الماكنـات عـلى الوصـول، وسـوف أقبـض عمولتـي حالمـا يتـم ذلـك. شـغل العمـولات هـذا أمـر أحمـق وعديـم المعنـى، لكـن مـا العمـل؟ لـو دبـرت أمـر ثـمان أو عـشر ماكنـات فقـط

لاستطعت الشروع في تجارتي المستقلة».. ويواصل آتول «أخي، لقد ساعدني كثيراً ديوانجاندجي عندما جئت الى هنا أول مرة. لولاه لما حصلت على عمل قط. الناس هنا يحترمونه فعلاً»

أشعر بوخزة في أذني عند سماعي اسم ديوانجاند، ثم يخرج السردارجي رأسه من النافذة ليسأل «سيد مافاني، متى نذهب؟»

«حسناً، لقد حددوا الساعة التاسعة، ولكن قد يحدث بعض التأخير بسبب البرد والضباب» لا شك من أنهما يتحدثان عن الجنازة. كان خادم السردارجي قد أحضر لي السجائر وهو يعد الآن مائدة الشاي هناك في الطابق الأعلى. ثم تتكلم السيدة فاشواني «أعتقد بأن على بريميلا أن تكون هناك. ألا تتفق معي يا حبيبي؟»

«حسناً، ينبغي أن تكون هناك» يجيب السيد فاشواني وهو يجتاز الشرفة «أسرعي بالتهيؤ»

«هل ستأتي الى المقهى هذا المساء؟» يسألني آتول.

«ربما» وألفُّ نفسي بالبطانية، أما هو فيعود الى غرفته. ثم يناديني بعد لحظات «أخي، هل خط الكهرباء مفتوح؟»

«نعم مفتوح» لا بد إنه يستخدم قضيب الغمس الكهربائي لتسخين الماء.

««تلميييييع!» يعلن صباغ الأحذية الصغير بطريقته اليومية المؤدبة، فيستدعيه السردارجي الى الأعلى. يجلس الصبي في الخارج وينهمك في التلميع بينما يوجه السردارجي التعليمات لخادمه كيما يحضر الطعام دون تأخير في الواحدة تماما «لا تنس أن تقلي بعض الفلفل، وهيّئ بعض السلطة أيضاً»

أعـرف أن الخـادم شـخص نـذل، إنـه لا يقـدم الوجبـات في مواعيدهـا ولم يسـبق لـه قـط أن طبـخ مـا طلبـه منـه السردارجـي.

في الخـارج مـا زال الضبـاب الكثيـف يغمـر الشـارع، ولا علامـة عـلى شروق الشـمس. الرجـل الـذي يبيـع الحمـص وكعـكات القمـح جـاء ونصـب عربتـه كالمعتـاد. إنـه يلمّـع الأطبـاق التـي تقعقـع بـين يديـه.

الحافلـة رقـم سـبعة تغـادر بمصلوبيهـا المعلقـين داخلهـا، بينـما يـوزع الجـابي البطاقـات المسـبقة الدفـع عـلى طابـور مـن الواقفـين وتخشـخش قطـع النقـود المعدنيـة في كل مـرة يعيـد اليهـم الباقـي. إنـه ليبـدو، بزيـه الغامـق وسـط تلـك الكـرات القطنيـة الغارقـة بالضبـاب، مثـل الشـيطان نفسـه.

واقترب الموكب الجنائزي قليلا

«هـل أرتـدي سـارياً أزرق؟» تسـأل السـيدة فاشـواني، فيجيـب السـيد فاشـواني بغمغمـة تبـين أنـه منهمـك بشـد ربطـة عنقـه.

ينتهـي الخـادم مـن تنظيـف بذلـة السردارجـي بالفرشـاة ويعلقهـا في مكانهـا، بينـما يقـف السردارجـي أمـام المـرآة وهـو يلـف عمامتـه.

يعـاود آتـول مافـاني الظهـور، وحقيبتـه الدبلوماسـية في يـده، وقـد ارتـدى البذلـة التـي خاطهـا الشـهر المـاضي. وجهـه مفعـم بالحيويـة وحـذاؤه يلمـع. «ألـن تذهـب؟» يسـألني. وقبـل أن أسـأله «الى أيـن؟» ينـادي «هيـا يـا سردارجـي، تأخـر الوقـت. لقـد تعـدت العـاشرة»

بعـد دقيقتـين يـشرع السردارجـي بنـزول السـلالم. بينـما ينظـر فاشـواني الى مافـاني مـن أعـلى السـلم ويسـأله «أيـن خطـتَ هـذه البذلة؟»

«هناك، في سوق الخان»

«إنها لطيفة جداً. سآخذ منك عنوان الخياط» ثم ينادي زوجته «هيا يا عزيزتي! سأنتظرك في الأسفل» وعندما يلتحق بمافاني والسردارجي يتحسس قماش البذلة ثم يسأل «هل البطانة هندية؟»

«انكليزية!»

«إنها ملائمة جدا» يقول وهو يدوّن على عجل عنوان الخياط الملصق بالبطانة. تظهر السيدة فاشواني في الشرفة فتبدو مثالا للكمال والنقاء في هذا الصباح البارد الرطب. يغمز السردارجي لمافاني ويبدأ بالصفير.

النعش الآن تحت نافذتي تماما. بضعة أشخاص يسيرون خلفه، مستغرقين في الأحاديث، وزوج من السيارات يزحف بمواكبتها.

تنزل السيدة فاشواني السلالمَ وقد ثبتت وردة في شعرها، ويضبط السردارجي المنديل البارز من جيب معطفه العلوي. وقبل أن يجتازوا الباب يسألني فاشواني «ألن تأتي؟»

«أسبقوني أنتم. سألحقكم بعد قليل» أجيب رغم أنني لا أعرف الى أين أذهب.

وتمضي الجنازة مبتعدة. تأتي سيارة من الخلف وتبطئ عندما تقترب من الموكب. يتبادل السائق بضع كلمات مع أحد المشيعين، ثم تندفع السيارة متقدمة. وتنسل بعدها السيارتان اللتان تتبعان الموكب وتندفعان وراءها.

أقف وأراقب السيدة فاشواني والرجال الثلاثة الآخرين وهم

يتوجهون الى موقف سيارات الأجرة. تسدل السيدة فاشواني دثار الفراء على كتفيها أما السردارجي فهو أما أنه يقدم لها قفازاته الفرائية أو أنه يريها إياها فقط. يتقدم سائق التاكسي ويفتح لهم الباب فيدخل الأربعة. تنطلق السيارة الآن في هذا الاتجاه وأستطيع أن أسمع الضحكات في داخلها. يشير فاشواني نحو الموكب ويقول شيئاً للسائق.

أقف في هدوء وأراقب كل شيء، وأشعر بطريقة ما بأن أقل كان بوسعي فعله هو الانضمام الى موكب تشييع ديوانجاند. أعرف إبنه تمام المعرفة، وينبغي على الإنسان في أوقات كهذه أن يعلن تعاطفه حتى مع أعدائه. البرد يكاد يدمر عزيمتي، لكن مسألة الالتحاق بالجنازة تعذب ضميري.

تبطئ سيارة الأجرة عند اقترابها من النعش. يخرج مافاني رأسه ويقول شيئاً. ثم تستدير السيارة نحو اليمين وتنطلق الى الأمام.

اشعر بالهزيمة، فأرتدي معطفي وأضع خفين في قدمي وأنزل السلالم. تدفعني أقدامي بشكل آلي باتجاه الموكب فأجد نفسي وراء النعش تماماً. أربعة رجال يحملونه على الأكتاف، وسبعة آخرون يسيرون على جانبيه، سابعهم أنا. أتفكّر في الفرق الذي نراه حالما يموت المرء: قبل عام واحد فقط عندما تزوجت إبنة ديوانجاند حضر آلاف من الضيوف، وكانت السيارات تصطف أمام منزله.

وصلنا الى شارع لنكرود. بعد الاستدارة التالية سنبلغ ميدان بانجكوين لإحراق الموتى. عندما يستدير الموكب أرى حشداً من

الناس وصفاً من السيارات. وهناك أيضاً عدد من الدراجات. ثمة لغط يتصاعد من مجموعة من النسوة الواقفات على جنب، كل منهن بتسريحة شعر مختلفة. كن واقفات هناك بنفس الطريقة من الانغماس في اللذة التي تراها في كونوتبليس يتصاعد دخان السجائر من جمع الرجال ويمتزج مع الضباب، وتبرق الشفاه الحمر والأسنان البيض في أفواه النساء وهن يتحدثن ويتحدثن وفي عيونهن غطرسة وكِبَر.

كان النعش قد أُنزِل ووضع فوق منصة. يخيم الصمت الآن فيما يتجمع الحشد المتفرق حول الجسد المسجى، والسائقون الذين يحملون باقات وأكاليل من الزهور يقفون بانتظار إشارة من أعين سيداتهم.

وقعت عيني على فاشواني. إنه يحاول أن يشير الى زوجته كي تذهب لإلقاء النظرة الأخيرة على الجثمان لكنها تواصل الوقوف في مكانها والحديث مع النسوة الأخريات. وقريبا منهن يقف السردارجي وآتول مافاني.

رفع الغطاء عن وجه الميت وشرعت السيدات الآن بوضع الزهور والأكاليل حوله، وتراجع السائقون وقد انتهت مهمتهم ووقفوا يدخنون قرب سياراتهم.

إحدى السيدات، بعد أن فرغت من وضع إكليلها، تخرج منديلا من جيبها، وتضعه على عينيها، وتنشُق قليلا ثم تخطو الى الوراء. وبدأت كل النسوة بإخراج مناديلهن وصرتَ تسمع أصوات الأنوف التي تنفخ فيها.

(1) Connaught Place أحد أكبر وأشهر الأحياء التجارية في نيودلهي.

أشعل بعض الرجال أعواد البخور وغرسوها حول رأس الجثمان ثم وقفوا دون حراك. وبدا من الأصوات أن حزناً متزايداً قد هيمن على قلوب السيدات. يخرج آتول مافاني ورقة من حقيبته ويريها لفاشواني. أعتقد أنها عريضة لجواز سفر.

إنهم يحملون الجثمان الآن الى داخل ساحة الحرق. يقف الحشد خارج البوابة وهم يراقبون. وانهى السائقون سجائرهم أو أطفؤوها ووقفوا على أهبة الاستعداد قرب سياراتهم.

صار الجثمان الآن داخل المحرقة. وهاهم السيدات والسادة الذين جاؤوا لتقديم العزاء يبدؤون بالمغادرة. وصار بإمكان المرء سماع أصوات الأبواب وهي تفتح وتغلق. ودارت محركات الدراجات وشرع بعض الحاضرين بالسير نحو محطة حافلات ريدنغ رود.

وما زال الضباب كثيفاً.

تمر الحافلات، وتقول السيدة فاشواني «لقد دعتنا بريميلا هذا المساء. سوف تأتي معنا، أليس كذلك يا حبيبي؟ ستكون هناك سيارة بانتظارنا. حسناً، اتفقنا؟»

ويهز فاشواني رأسه موافقاً.

السيدات اللائي يغادرن بالسيارات يبتسمن ويودع بعضهن البعض. وتنطلق السيارات.

آتول مافاني والسردارجي يتوجهان سيراً نحو موقف الحافلات. لو كنت أرتدي ثيابا لائقة لتوجهت من فوري الى عملي. لكنها الحادية عشرة والنصف.

أوقـدت النـار في المحرقـة، وجلـس أربعـة رجـال أو خمسـة عـلى مصطبـة تحـت إحـدى الأشـجار. إنهـم مثـلي، وجـدوا أنفسـهم داخلـين الى السـاحة. لا بـد أنهـم قـرروا أخـذ إجـازة هـذا اليـوم، وإلا لكانـوا يسـتعدون الآن للذهـاب الى أعمالهـم.

لا أسـتطيع أن أقـرر إن كنـتُ سـأعود الى البيـت وأغتسـل وأذهـب الى المكتـب أم سأسـتغل عـذر الوفـاة لأحصـل عـلى إجـازة. نعـم، لقـد تـوفي أحدهـم بالفعـل، وهـا أنـا عائـد مـن موكـب تشـييعه!

الولد الذي لم يعرف الألم

تي سي بويل[1]

لقد جاء إلى العالم مثلهم -مثلنا- جميعاً، أي أسمر اللون مثل حرباء الإغوانا ومُلطخاً ببقايا ما بعد الولادة، لم يكن أكثر لفتا للانتباه من التاريخ المطبوع على صحيفة الصباح، لكنني عندما نظفت حنجرته وصفعته على قفاه الصغير لم يُصدر صوتَا. غير انه، وعلى العكس تمامًا مما يحدث للمواليد الجدد، فتح فجأةً عينيه اللتين يرتسم عليهما مظهر قصر النظر الفضولي الذي يميزهم عند فحصهم للمرة الأولى وبدأ يتنفس بهدوء وسكينة، دون أي صراخ أو ضجيج مثلما يفعل أقرانه. وأنا أُسلم الرضيع إلى والدته لاح العبوس على وجه ممرضتي، إلفيرا فوينتس، التي قضت خمسة

---

(1) توماس كوراجيسان بويل روائي وكاتب قصص قصيرة أمريكي. ولد في عام 1948 ونشأ في ولاية نيويورك ونال فيها شهادة البكالوريوس في التاريخ واللغة الانكليزية ثم درجتي الماجستير والدكتوراه في الآداب والفنون من جامعة ايوا. عمل أستاذًا متمرساً للغة الإنجليزية في جامعة جنوب كاليفورنيا ونشر تسعة عشر رواية وأكثر من 150 قصة قصيرة. حاز على جائزة بين- فوكنر عام 1988 عن روايته الثالثة «نهاية العالم» التي تروي أحداث 300 عام في شمال نيويورك.

في قصص وروايات بويل تمتزج أفضل عناصر البساطة وسمات ما بعد الحداثة والواقعية السحرية والكوميديا السوداء والجدية الأخلاقية والحبكات الممتعة والغريبة، وتجلبها إلى الحياة الأمريكية بطريقة سهلة ومتمردة ومبتكرة، ويتناول العديد منها جيل طفرة المواليد، بشهيته ومتعه وإدمانه. وتتجلى مواضيعه، مثل جهود البطل الذكر التي غالبًا ما تكون مضللة، والجاذبية البراقة للبطل المضاد، إلى جانب السخرية اللاذعة والفكاهة والواقعية السحرية. كما يستكشف خياله قسوة الطبيعة وتقلباتها والأذى الذي يلحقه المجتمع البشري بالبيئة دون قصد.

عشر عامًا تعمل في جناح السرطان في مستشفى غوادالاخارا قبل أن تعود إلى المنزل لتكرس نفسها لي، حبيبة ورفيقة. كانت تُفكر في نفس الشيء الذي كنتُ أفكر فيه تماماً: لا بد أن هناك بعض الانقباض أو التشوه في جهاز الطفل الصوتي. أو ربما وُلد بدونه.

لقد رأينا أشياء غريبة، كل أنواع العيوب والطفرات، وخاصةً بين أبناء العمال المهاجرين، بسبب الخلطات الشيطانية من مبيدات الأعشاب والمبيدات الحشرية والأغذية المعدلة وراثيًا التي تعرضوا لها بشكل روتيني. ثمة رجل لن أذكر اسمه هنا، عاد من حقول القطن في أريزونا، وقد بدا كأحد أشباح إلفيرا السرطانية، وأنجبت زوجته بعد تسعة أشهر مسخاً بلا وجه -لا عيون ولا آذان ولا فم ولا أنف، مجرد شبكة من الجلد الشفاف مشدودة بإحكام على رأس بحجم حبة أفوكادو. رسميًا، وصفناها بأنها ولادة جنين ميت. أما الجثة -إن صح التعبير- فقد تخلصنا منها مع بقية النفايات الطبية.

لكن هذا أمر مختلف تماماً. ما أقصده هو أننا كنا مخطئين. لحسن الحظ- هذا ما بدا على الأقل. كان والدا الطفل، فرانسيسكو ومرسيدس فونيس، بائعين متجولين لتاكو لحم الغنم، الأكلة ذات الضرر الشديد على الجهاز الهضمي، وأنا هنا أنصح كل من يقرأ هذه السطور بتجنب كشكهم القائم عند زاوية شارعي الاستقلال والدستور، إذا كانوا يريدون الحفاظ على توازنهم الصحي. سرعان ما بدأ الرضيع يتحسس ثدي أمه ويُصدر أصوات القرقرة والمص المعتادة. مرسيدس فونيس، التي كانت في السابعة والعشرين من عمرها آنذاك، ولديها ستة أطفال بالفعل، ورجلين مقوستين،

وكتفي لاعب كرة قدم أمريكية، وحاجب واحد متصل يذكرك بفريدا كاللو (مجرد بالتأكيد من كل فن وأناقة[1])، عادت إلى كشكها في ذلك المساء، تشوي لحم الماعز على شواية فحم لتسلية الغافلين، وبالنسبة لي ولإلفيرا، كان هذا كل شيء. لقد دخلت روح أخرى العالم. لا أتذكر ما فعلناه في تلك الليلة، لكنني أعتقد أنه لم يكن شيئًا مميزا. عادة، بعد أن نغلق العيادة، كنا نجلس في الفناء، مرهقين، ونراقب الحمام وهو يستقر على الأسلاك بينما تقوم الخادمة بإعداد سلطة خضراء وطبق من يخنة الخضار أو قلوب الخرشوف المقلية، وهو الطبق المفضل لدى إلفيرا.

مرت أربع سنوات قبل أن أرى الطفل مرة أخرى أو حتى أفكر في عائلة فونيس لأكثر من لحظة عابرة عندما أعالج حالات القيء والإسهال. حين كنت أسأل مرضاي كالمعتاد عما أكلوه وأين أكلوا. «إنه المحار يا دكتور» كانوا يجيبونني وعليهم آثار الندم. أو «إنه البصل، بالتأكيد البصل. إنه لا يناسبني أبدا!» أو «المايونيز، لن أتناول المايونيز مرة أخرى» أو الجملة الأثيرة «لم يكن في اللحم أية رائحة غريبة على الإطلاق»

كانوا يلقون باللوم على المطعم الصيني، والمينونايت[2] ومنتجات ألبانهم، أو زوجاتهم وأعمامهم وكلابهم، ولكن في أغلب الأحيان كنت قادرًا على تتبع مصدر المشكلة حتى كشك آل فونيس. غير أن مرضاي كانوا ينظرون إليّ بدهشة قائلين «لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً يا دكتور- عائلة فونيس تصنع

(1) فريدا كاللو الفنانة المكسيكية الشهيرة.

(2) أتباع الطائفة المينونايتية البروتستانتية المحافظة.

أفضـل تاكـو في المدينـة»

عـلى أي حـال، ظهـرت مرسـيدس فونيـس في العيـادة ذات صبـاح مشـمس وابنهـا في الأثـر. دخلـت مـن البـاب وهـي تسـحبه بخجـل مـن معصمـه (كانـوا قـد أطلقـوا عـلى الصبـي اسـم داماسـو، عـلى اسـم شـقيق زوجهـا التـوأم الـذي كان يرسـل لـه أحيانًـا، ومتـى مـا شـاء، علبًـا صغـيرة مـن الشـوكولاتة وورقـة نقديـة مـن فئـة عشريـن دولارًا مـن لـوس أنجلـوس) وجلسـت عـلى كـرسي في غرفـة الانتظـار بينـما كان ببغـاء إلفـيرا يقضـم قضبـان قفصـه المصنـوع مـن الخـوص، ومكيـف الهـواء الصغـير الـذي وضعتـه في النافـذة الأماميـة يُصـدر تيـارات هـواء بـاردة. كنـت أشـعر في ذلـك الصبـاح تحديـداً بـأن كل أمـوري عـلى مـا يـرام، وبأننـي في قمـة عطائـي، حيـث نجحـت بعـض الاسـتثمارات العقاريـة التـي أقدمـت عليهـا، وكانـت إلفـيرا تـولي اهتمامـاً خاصـاً لبيـت صغـير متواضـع عـلى شـاطئ البحـر كنـا نأمـل في شرائـه كمـكان لقضـاء العطـلات، وربـما كمـكان للتقاعـد في المسـتقبل. لم أعـد، عـلى أي حـال، ذلـك الشـاب الـذي كنتـه في السـابق، وقـد أخـلى الحـماس الأبقراطـي لشـفاء الأعـرج وعـلاج الحـالات المسـتعصية مكانـه لنـوع مـن العمـل الشـاق المتكـرر، ولم أعـد أفاجـأ بأيـة حالـة تعـرض لي؛ كنـت أشـخص حالـة كل مريـض يجتـاز البـاب حتـى قبـل أن يأخـذ مقعـده. لقـد رأيـت كل شيء. كنـت أشـعر بالملـل، بنفـاد الصـبر وبالضجـر. لكـن مزاجـي، في هـذا اليـوم تحديـدًا، كان متفائـلًا كـما أسـلفت، وكان كيـاني كلـه مفعـماً بفرحـة بدائيـة باحتـمال امتـلاك ذلـك الهيـكل الصغـير عـلى شـاطئ البحـر،

وأظـن بأنني ربـما كنـت أصفّـر وأنـا أدخـل غرفـة الفحـص.

«مـا المشـكلة؟» سـألتُ مرسـيدس فونيـس التـي كانـت ملتفـة بشـال عـلى الرغـم مـن الحـر. كانـت قـد صففـت شـعرها، وارتـدت الحـذاء الـذي تحتفـظ بـه لقـداس الأحـد، وفي حضنهـا الطفـل الـذي ينظـر إليّ بعينـين تشـبهان عينـي والـده، عينـين مسـتديرتين تمامًـا، كـما لـو أنهـما صُنعتـا عـلى خـط تجميـع في إحـدى المعامـل، عينـين لا ترمشـان قـط.

همست مرسيدس قائلة «إنهما يداه يا دكتور. لقد أحرقهما».

وقبـل أن أقـول «لنلـقِ نظـرة» بنـبرتي الأبويـة المطمئنـة، مـدّ الصبـي يديـه، رافعًـا راحتيـه إلى أعـلى، ورأيـت الجـراح التـي أصابتهـا. كانـت حروقـاً مـن الدرجـة الثالثـة، في منتصـف كل راحـة يـد، وامتـدت الى عـدة أصابـع أيضـاً. حلّـت قشـور جلديـة يابسـة سـوداء محـلّ الأنسـجة المدمـرة، وكان ينـز مـن حوافهـا سـائل داكـن بلـون النبيـذ. لقـد رأيـت مثـل هـذه الحـروق مـن قبـل بالطبـع في مناسـبات لا تُحـصى، نتيجـة لحريـق منـزلي أو تدخـين في السريـر أو بسـبب تخبـط طفـل في الموقـد، لكـن هـذه الحـروق بـدت غريبـة، كـما لـو أنهـا قـد أُلحقـت بـه عمـدا. نظـرتُ بحـدة إلى الأم وسـألتها عـما حـدث. - - «كنـتُ مشـغولة بأحـد الزبائـن» قالـت وهـي تُخفـض عينيهـا كأنهـا تسـترجع الصـورة، «طلبيـة كبـيرة، عائلـة مـن سـبعة أفـراد، ولم أكـن أراقبـه- ولم يكـن فرانسيسـكو هنـاك. إنـه يبيـع إطـارات الدراجـات الآن، كـما تعلـم، فقـط لنُغطـي نفقاتنـا. لا بـد أن داماسـو قـد مـد يـده إلى المجمـرة عندمـا أدرت ظهري. أخـرج جمرتـين سـاخنتين، يـا دكتـور، واحـدة في كل يـد. لم أكتشـف مـا

فعله إلا عندما شممت رائحة اللحم وهو يحترق» ورمقتني بنظرةٍ من تحت حاجبها المُتصلّب الذي جعلها تبدو وكأنها عابسة على الدوام ثم أردفت «كانت رائحة مثل رائحة لحم الماعز تمامًا. لكنها مختلفة قليلاً»

«لكن كيف؟» صرختُ وأنا غير قادر على إكمال السؤال. لم أُصدّقها أبداً، فما من أحد، ولا حتى دراويش الهند الفقراء (وهم دجالون) يستطيع التمسك بجمرة مشتعلة لفترة كافية للإصابة بحروق من الدرجة الثالثة.

« إنه ليس طبيعيا يا دكتور. لا يشعر بالألم كما يشعر به الآخرون. انظر هنا»

ورفعت ساق الطفل اليمنى كما لو أنها منفصلة عنه، وشمرت بنطاله الصغير لتريني ندبة داكنة بارزة بحجم يد شخص بالغ.

«هل ترى هذا؟ هنا حيث دخل كلب البيتبول القذر الذي تملكه إيزابيل بريسينو من خلال السياج وعضه، وقد ذهبنا إلى المحامي أيضاً، صدقني، لكنه لم يصرخ أو ينطق بكلمة. كان الكلب يرميه في التراب، يمضغه كما لو كان عظمة، ولو لم يخرج زوجي إلى الفناء ليرش ماء الحلاقة على شجيرات الورد، لكان قد مزقه إربا إربا»

نظرتْ من النافذة لوهلةٍ كأنها تحاول أن تستجمع نفسها، وحدق بي الصبي بعينيه اللتين لا ترمشان. ثم أخذ يبتسم ببطء شديد، كما لو كان فخورًا، بطريقة منحرفة، بما حل به أو بقدرته على احتمال ذلك، ولم يسعني إلا أن أفكر بأنه سيكون جنديا من

الطـراز الأول في أيـة حـرب نخوضهـا عندمـا يكـبر.

«وهـل تـرى هـذا؟» تابعـت وهـي تمـرر سـبابتها عـلى شـفتي الصبـي «هـذه النـدوب هنـا؟»

رأيـتُ خطوطًـا شـاحبة خشـنة تتشـعب مـن فمـه «هنـا حيـث عــض نفســه، عــض نفســه دون أن يــدري»

«سـيدة فونيـس» قلـتُ بنـبرة حـادة، نـبرة أخـص بها السـكارى المتورمـي الكبـد والمدخنـين الذيـن يسـعلون دمـاً وهم يشـعلون سـيجارة أخـرى، هنـا في مكتبـي بالـذات «لا أعتقـد بأنـكِ تخبرينـني الحقيقـة كاملـةً. لقـد تعـرض هـذا الصبـي لمعاملـة سـيئة. لم أرَ قـط حالـةً أسـوأ مـن هـذه. يجـب أن تخجـلي مـن نفسـك بـل يجـب إبـلاغ السـلطات عنـك»

أدارت عينيهـا. جلـس الصبـي في حضنهـا كدميـة، كـما لـو كان مصنوعـا مـن الخشـب.

«أنــت لا تفهــم. إنــه لا يشــعر بــالألم. لا شيء. هيــا. خِـزهُ بإبرتـك. يمكنـكِ غرسـها في ذراعـه الى آخرهـا ولـن يُلاحـظ الفـرق.

كنـت غاضبـاً الآن. مـا هـذه الخدعـة التـي تمارسـها معـي؟ ذهبـتُ مبـاشرةً إلى الخزانـة، وأخرجـتُ حقنـة نبيـذة، وجهـزتُ حقنـة (نصـف جرعـة مـن فيتامـين ب12 أحتفـظ بهـا لكبـار السـن ومـرضى فقـر الدم) ومسـحتُ بقعـةً مـن ذراعـه بالكحـول. راقبـا كلاهمـا بـلا مبـالاة بينـما كانـت الإبـرة تخـترق لحمـه. لم يرتجـف الصبـي قـط. لم يُبـدِ أي إشـارة إلى حـدوث أي شيء عـلى الإطـلاق. لكـن هـذا لم يُثبـت شـيئًا. طفـل واحـد مـن كل مئـة سـيتحامل عـلى نفسـه ويتشـجع عندمـا أريـه الإبـرة

(على الرغم من أن التسعة والتسعين الآخرين سيصرخون كما لو أن أظافرهم تُنتزع واحدةً تلو الأخرى).

«هل ترى؟» قالت.

«لا أرى شيئًا» أجبت « هو لم يجفل، هذا كل ما في الأمر. كثير من الأطفال- بعضهم على الأقل- جنود صغار حقًا فيما يتعلق بحقنهم» وقفت على رأسه ونظرت إلى وجهه وقلت له.

«أنت جندي صغير حقا، أليس كذلك يا داماسو؟»

«نحن نناديه سين دولور يا دكتور[1] » قالت الأم بصوت متعب «هذا هو لقبه. هذا ما يناديه به والده عندما يسيء التصرف، لأنه مهما ضربه أو قرصه أو لوى ذراعه فلن يتأثر. سين دولور، يا دكتور، الذي لا يتألم»

كان في السابعة أو الثامنة من عمره على الأرجح عندما رأيته مرة أخرى. لا أتذكر بالضبط، لكنه كبر وصار فتى رزيناً نحيفًا طويل القامة بعينين نهمتين كبيرتين وشعر يشبه شعر والده الهندي، لا يزال نحيفًا كالدمية ولا يزال يبدو مصابًا بفقر الدم. هذه المرة أحضره الأب وهو يحمله بين ذراعيه. كانت فكرتي الأولى هي أنه مصاب بالديدان، ودار في ذهني أن أصف له جرعة مضادة لها قبل أن يغادر، لكنني صرفت النظر عن ذلك عندما خطر لي بأن مرضه لا بد أن يكون بسبب طبخ والدته. قلت لنفسي أن عينة من البراز ستفي بالغرض. لكنني سأحتاج بالطبع إلى سحب عينة من دمه لتقييم مستويات الهيموغلوبين- إذا كان الوالدان على استعداد،

(1) في الاسبانية Sin Dolor أي الشخص الذي لا يتألم وهي حالة مرضية نادرة لا يشعر فيها الانسان بأي نوع من الألم الجسماني.

بالطبع، إذ كان كلاهما معروفاً بالبخل الشديد، ونادراً ما رأيت أياً من آل فونيس في عيادتي ما لم يكن مريضاً الى درجة خطيرة.

«ما مشكلته؟» سألتُه وأنا أقف وأمد يدي الى يد فرانسيسكو فونيس مصافحاً. انحنى ليُنزل الصبي على قدميه وقال وهو يتأوه:

«هيا يا داماسو، دع الطبيب يرى مشيتك»

لاحظتُ أن الصبي يقف بشكل غير متوازن، مائلاً الى ساقه اليمنى. نظر أولاً إلى والده، ثم إليّ، ثم أحنى كتفه مستسلماً، ومشى إلى الباب وعاد وهو يعرج كما لو أن ركبته قد خُلعت، ثم رفع ناظره مبتسماً وقال بصوتٍ مُنخفضٍ ومُعتذرٍ كصوت مُعترف:

«أعتقد أن هناك خطباً ما في ساقي»

أمسكتُ به من تحت ذراعيه ورفعته على طاولة الفحص، مُلقياً نظرةً على الأب. إن لم يكن هذا تعنيفاً للأطفال، فما هو إذن؟ وسألته:

«هل تعرضتَ لحادث؟»

أجاب والده نيابةً عنه:

«لقد كسر ساقه، ألا ترى ذلك؟ قفز من سطح السقيفة وهو يعلم خطورة ذلك»

كان فرانسيسكو فونيس رجلاً قوياً ضخم البنية وذا صوت منخفض لكنه ثاقب، وكان ينظر بغضب إلى ابنه وكأنه يقول إن حقيقة الأمر واضحة وأن الصبي سوف يتعرض للضرب عندما يعود إلى المنزل، سواء كانت ساقه مكسورة أم لا

لكنني تجاهلته وقلت للصبي وأنا أربت على طاولة الفحص
«هل يمكنك أن تتمدد هنا على ظهرك؟»

امتثل الصبي، ورفع ساقيه إلى الطاولة دون جهد واضح، وكان أول شيء لاحظته هو تلك الندوب، مجموعة من الحروق والجروح التي لا تعد ولا تحصى، تمتد من كاحليه إلى فخذيه، وشعرت بالغضب يتصاعد في داخلي مرة أخرى. تعنيف! سطعت لائحة الاتهام في رأسي. كنت على وشك استدعاء إلفيرا لتأتي وتطرد الأب من عيادتي حتى أتمكن من علاج الابن- واستجوابه أيضا- عندما مررت يدي على ساق الصبي اليسرى واكتشفت التورم هناك. لقد كان لديه بالفعل كسر في الساق- كسر في عظمة الظنبوب، هذا واضح عند تحسسه «هل يؤلمك هذا؟» سألته وأنا أضغط على المكان، فهز رأسه نافياً.

«لا شيء يؤذيه» قال الأب وهو يحوم حولي ويبدو عليه نفاد الصبر، متوقعًا أن يُخدع، ويريد فقط استخراج البيزو من محفظته، كما لو كانت إصابة ابنه نوعًا من ضريبة يدفعها ويُكمل بعدها بقية حياته.

«سنحتاج إلى أشعة سينية» قلت.

«لا أشعة سينية»، زمجر. «كنت أعلم أنه كان يجب أن آخذه إلى المعالج الشعبي، كنت أعلم ذلك. فقط أعد العظم اللعين الى مكانه وانهِ الأمر»

أحسست بنظرة الصبي إليّ. كان هادئاً تماماً، عيناه مثل البركتين الساكنتين اللتين ينتهي اليهما الغدير الذي يجلب الماء من الجبال

إلى الصهريج الذي خلف بيتنا الصغير الجديد على شاطئ البحر.

ولأول مرة، خطر ببالي أن شيئاً غير عادي يحدث هنا، نوعاً من المعجزة الطبية: كان الصبي قد كسر عظم قصبة ساقه، ومن المفترض أن يتلوى ألماً على الطاولة ويصرخ من الوجع، لكنه بدا كما لو لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق، كما لو أنه دخل عيادة العم الطبيب الطيب لمجرد إلقاء نظرة على الهيكل العظمي المثبت على الحامل وعلى الشهادات المؤطرة على الجدران البيضاء، وليتلذذ بالتوهج المعدني للمعدات التي كانت إلفيرا تُلمّعها كل صباح قبل أن يبدأ المرضى بالاصطفاف خارج الباب.

صدمني الأمر كالصاعقة: لقد مشى على ساق مكسورة. مشى عليها ولم يعرف الفرق إلا لأنه كان يعرج بطريقة غامضة. لم أستطع كبح جماح نفسي. أمسكت بساقه لأتحسس استقامة العظم في موقع الكسر

«هل هذا مؤلم؟» سألت وأنا أشعر بالعظم ينزلق إلى مكانه. خفت الضوء خارج النافذة ثم عاد ليظهر مع مرور سحابة خفية. «وهذا؟» سألت. «وهذا؟»

بعد ذلك اليوم، بعد أن قمت بتجبير العظم ووضعه في القالب الجبسي وقدمت له زوجاً من العكازات غير المتطابقة قبل أن أخرج الى حجرة الانتظار وأخبر فرانسيسكو فونز أن ينسى أمر أجرة العلاج وأقول له «مجانا» شعرت أن آفاق حياتي أخذت بالاتساع أدركت أنني كنت أحدق وجهاً لوجه في معجزة خارقة، ومن ذا الذي يمكن أن يلومني على رغبتي في تغيير مجرى الحياة التي

أعيشها ووضع بصمتي كواحد من عمالقة المهنة، فتبجّل وتُدرَس جيلاً بعد جيل بدلاً من أن تتلاشى وتخبو في هذا السأم القاتل الذي يخيم عليها كطبيب ممارس في مدينة صغيرة يسلخ أيامه في مراقبة الطيور الجاثمة على الاسلاك والاهتمام باللحم الذي يُسلَق في القدر وبالبيت الصغير على ساحل البحر؟

كانت الحقيقة هي أن داماسو فيونيز قد تعرض بالتأكيد الى طفرة في جيناته، طفرة إيجابية، متفوقة، تقدمية، لا تشبه في شيء تلك الطفرات التي أنتجت أولئك الرضع ذوي الوجوه الممسوخة أو التشوهات الفظيعة الأخرى التي ما فتئت تُعرضُ عليَ في عيادتي. إذا كان من الممكن عزل هذه الطفرة- إذا أمكن اكتشاف سياقها الوراثي- فسيكون هذا نعمة لا تقدر بثمن لجنسنا المعذَب المسكين. تخيل شيخوخة خالية من الأوجاع، تخيل ولادة دون ألم، والعمليات الجراحية وطب الاسنان.

تخيل مرضى إلفيرا في جناح الأورام وهم يتسابقون على كراسيهم المتحركة ويبتسمون ويمزحون من أعماق قلوبهم. يا لها من حرية! يا لها من سعادة! يا له من نصر مبين على الآلامُ التي تلوينا وتشوهنا وتطاردنا حتى القبر!

بدأتُ أتردد على كشك فونيس في الساعة التي تسبق القيلولة، على أمل أن ألقي نظرة خاطفة على الصبي، أو أن أصادقه، أو أكسب ثقته، أو ربما أجعله ينتقل إلى بيتي ويحل محل الطفل الذي لم ننجبه أنا وإلفيرا بسبب مشاغل الدنيا وهمومها الطاحنة. حاولتُ أن أكون عفوياً. -- «بويناس تارديس»[1] كنتُ أقول بنبرة شديدة

(1) مساء الخير، بالإسبانية.

الـود بينـما ترفـع مرسـيدس فونيس وجههـا المتعـب مـن فـوق الشـواية. «كيـف حالـك؟ وكيـف حـال تلـك التاكـوات الشـهية؟ نعـم، نعـم، سـآخذ اثنـين. لنجعلهـا ثلاثـة» حتـى أنني قمـت بالتظاهـر بتناولهـا، عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت مجـرد قضمـة مـن الخبـز لا غـير، بينـما اصطفـت جيـوش كاملـة مـن مرضـاي السـابقين والحاليـين للحصـول عـلى وجباتهـم الملفوفـة بـورق الألمنيـوم.

لا بـد أن شـهرين قـد مـرّا بهـذه الطريقـة قبـل أن ألمـح داماسـو. طلبـتُ الطعـام، وتنحّيـتُ جانبـاً، فـإذا بـه أمامـي، يقـف وحيـداً خلـف الشـواية، بينـما كان إخوتـه الأصغـر سـناً- ثلاثـة أعضـاء جـدد في العائلـة- عاكفـين عـلى تمريـغ ألعابهـم في الـتراب.

أشرقـت عينـاه عندمـا رآني، وأظـن أنني قلـتُ بضـع كلـمات بسـيطة مثـل «أرى أن سـاقك قـد شُـفيت تمامـاً. مـا زلـتَ لا تشـعر بـالألم، أليـس كذلـك؟»

كان مهذبـا، وحسـن الخلـق. خـرج مـن خلـف الشـواية وأمسـك بيـدي بطريقـة رسـمية «أنـا بخـير» قـال، ثـم توقـف قليـلاً قبـل أن يسـتدرك قائـلاً «مـا عـدا هـذا» ورفـع قميصـه المتسـخ المطبـوع عليـه شـعار فرقـة بـوب أمريكيـة شـمالية: ثلاثـة وجـوه سـاخرة وهالـة مـن الشـعر الأشـعث، وأراني جرحـاً مفتوحـاً بحجـم بيضـة مقليـة. حـرق آخـر!

«أوه،» هتفـتُ متألمـاً «هـل ترغـب في المجـيء إلى العيـادة كـي أعالجـك؟» فاكتفـى بـأن نظـر إليّ. ومـرت لحظـة، وتصاعـد الدخـان مـن الشـواية ثـم أضفـت «مجانًـا»

هز كتفيه دون مبالاة. لم يكن الأمر يهمه بأي شكل من الأشكال. لا بد بأنه كان يشعر بكونه خالداً، كما يفعل جميع الأطفال قبل أن يتعرفوا جيداً على الموت وشتّى ضروب البؤس التي تسبقه وتصاحبه، لكنه كان بالطبع عرضة للعدوى وفقدان الأصابع والأطراف وتسلخ اللحم وفساد الأعضاء الداخلية، تمامًا مثل أي شخص آخر، على الرغم من أنه لم يستطع الشعور بأي شيء من هذا. هز كتفيه مرة أخرى ونظر إلى والدته التي كانت تحرك قطعًا من لحم الماعز حول الشبكة المعدنية الرخيصة فوق الموقد بينما كان الزبائن ينادون بطلباتهم ثم قال:

«عليّ أن أساعد والدتي». كدت أن أفلته من يدي، لكنني اهتديت فجأة الى خدعة من النوع الذي يأتي بغتة كما لو كان دفقاً عصبياً أو خفقاناً لأجنحة داخلية

«هل تريد أن ترى عقاربي؟»

شاهدتُ التغير الذي طرأ على وجهه وهو يتخيل الصورة المقرَّبة لحيوان من الفصيلة العنكبوتية بمخالبه وإبرته المخيفة المهددة التي ترتفع أمامه. ألقى نظرة سريعة إلى حيث كانت والدته ترجع بقية النقود للسيدة باديلا، وهي امرأة ضخمة يزيد وزنها عن ثلاثمائة رطل سبق أن عالجتها من ارتفاع ضغط الدم ومرض السكري المُصاحب للبالغين وطفح جلدي تناسلي خبيث لا يبدو أن أي دواء متاح قادر على القضاء عليه، ثم انحنى خلف الموقد ليظهر بعد لحظة في نهاية الزقاق الذي كنت أقف فيه ولوّح بيده اليمنى بفارغ الصبر، فتخليتُ عن حيلة تناول طعام والدته،

وأدرتُ ظهري للشواية وسارعتُ إلى مرافقته.

«أنا أحتفظ بواحد منها في جرة» قال لي، واستغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أنه كان يتحدث عن العقارب «واحد بني اللون»

«ربما يكون من جنس العقارب المخططة وهو شائع جداً في هذه المناطق. هل توجد خطوط داكنة على ذيله؟»

أومأ برأسه بطريقة غامضة، مما جعلني أعتقد أنه لم يلاحظه عن كثب. كان عقرباً، وهذا أمر كافٍ بالنسبة له. سأل وهو يخطو بخطى واسعة دون أدنى دليل على العرج:

«كم واحداً لديك؟»

يجب أن أقول، بالمناسبة، إنني دارس حشرات هاوٍ أو بالأحرى، دارس عنكبوتيات، وإن العقارب هي تخصصي. أجمعها كما يجمع دارس الفراشات، مع أن عيناتي لا تزال حية. كنت في تلك الأيام أحتفظ بها في حوض زجاجي في الغرفة الخلفية للعيادة، حيث كانت تتشبث برضا بالجوانب السفلية للصخور وشظايا الفخار المكسورة التي رتبتها هناك من أجلها.

قلت «أوه، لا أعرف» كنا حينها نمرّ بمجموعة من الصبية الصغار يحدقون بنا من أحد الأزقة، فهتفوا جميعًا باسمه بصوت واحد، ليس سخريةً أو لعبا، بل إجلالًا وتبجيلًا. وسرعان ما اكتشفتُ أنه كان بمثابة بطل بينهم.

«عشرة؟» سأل مخمناً. كان يرتدي صندلًا لمعت قدماه من خلاله في وهج ضوء الشمس، وهي تضرب أحجار الرصف. كان

الجـو حـارا جـداً.

«أوه، ربـما مئـة أو أكثـر، مـن حـوالي سـتة وعشريـن نوعـاً» ثـم أردفـت في مكـر «إذا كان لديـك الوقـت، فسـأريك إياهـا جميعـاً»

أصررت بالطبـع عـلى معالجـة الحـرق أولاً، كنـوع مـن المقايضـة عـلى سـبيل الاحسـان. لـن يكـون مـن الجيـد أن يمـوت مـن عـدوى بكتيريـة، أو مـن أي سـبب مشـابه- لأسـباب إنسـانية بالتأكيـد، ولكـن أيضًـا بسـبب تعلـق الأمـر بالكنـز الـذي كان يحملـه للبشريـة جمعـاء. كان حماسـه واضحًـا وأنـا أقـوده إلى الغرفـة الخلفيـة الرطبـة الخافتـة، بأرضيتهـا الخرسـانية ورائحـة الـتراب المحـروث والخـل. أول عينـة أريتهـا لـه كان عقـرب الصحـراء العمـلاق الـذي يبلـغ طولـه حـوالي خمـس بوصـات ويـكاد لا يختلـف في لونـه عـن لـون الرمـال التـي يسـتقر عليهـا. كان يمسـك صرصـاراً بـين طرفيـه الأوسـطين بينـما أنـا أرفـع السـتار عـن أعـلى الحـوض الزجاجـي. قلـت لـه:

«هـذا أكـبر عقـرب في أمريـكا الشـمالية، مـع أن سـمه ضعيـف نسـبيًا مقارنـة بسُـمّ عقـرب اللحـاء. إنـه يعيـش هنـا أيضـاً، ويمكـن أن يكـون خطـيراً للغايـة».

كل ما قاله هو. «أريد أن أرى النوع السام».

كانـت لـديّ عـدة عينـات في حـوض زجاجـي مُثبـت عـلى الحائـط الخلفـي، فأطفـأت الأنـوار وأنزلـتُ السـتائر، واسـتخدمتُ ضـوءاً معتـماً لأُريـه كيـف تتوهـج بضيائهـا الفسـفوري الطبيعـي. مـا إن شـغّلتُ الضـوء المعتـم، وحالمـا اسـتطاع تمييـز أشـكال المخلوقـات وهـي تزحـف حـول منزلهـا، حتـى أطلـق صيحـة فـرحٍ وأصرّ عـلى تسـليط الضـوء

على كلِّ واحد من الأحواض بالتتابع حتى قادني أخيراً إلى عقارب اللحاء وسألني:

«هل ستلدغني؟ أعني، لو مددتُ يدي إليها؟»

هززتُ كتفي وقلت:

«قد تفعل ذلك. لكنها مخلوقات خجولة، وهي، مثل معظم الحيوانات، تُريد تجنّب أي نوع من المواجهة، ولا تُريد إهدار سمّها. كما تعلم، يتطلّب صنع السمّ الكثير من السعرات الحرارية، وهي تحتاج إليه لقتل فرائسها، حتى تتمكن من تغذية نفسها»

أدار وجهه نحوي في الظلام، فحجب الضوء الأسود ملامحه وأضفى على عينيه زرقة غريبة، وسألني

«وهل سأموت؟»

لم يعجبني ما يسعى إليه من خلال سؤاله- وأنا متأكد من أنكم خمنتم بالفعل ما سيحدث: صبي لا يشعر بالألم ومخلوقات مجهزة جيداً للتسبب فيه- لذلك هوّلت الخطر

«إذا لدغك واحد منها، فقد تمرض بشدة، وقد تتقيأ، وقد يزبد فمك. هل تعرف ما هو الزَبَد؟» هز رأسه فواصلت كلامي «حسنًا، لا يهم. الحقيقة هي أن لدغة من هذا النوع قد تقتل شخصاً شديد الحساسية، ربما رضيعاً أو عجوزاً، ولكن ليس صبياً في مثل سنك على الأرجح، مع أنها ستجعلك مريضاً جداً جداً»

«هل ستقتل جدي؟»

تخيلت الجد. كنت قد رأيته نائمًا خلف المرحاض أحياناً، كومة من العظام والإصابات الجلدية، لا بد أنه كان في التسعينيات

من عمره.

«نعم» أجبته «هذا ممكن، إذا خالفه الحظ وداس على واحد في طريقه إلى الحمام في ليلة ما...

في تلك اللحظة رن جرس العيادة، مع أننا كنا نغلقها بعد الظهر إلا في حالات الطوارئ. ناديتُ على إلفيرا، لكن يبدو أنها كانت تتناول غداءها في الحديقة أو تغفو في جناحها بالطابق العلوي. قلتُ للصبي:

«تعال معي» وخرجتُ به من الغرفة الخلفية، مرورًا بغرفة الفحص، إلى العيادة، حيث وجدتُ أحد رجال الحي، داغوبيرتو دومينغيز، واقفًا عند المنضدة ويده اليسرى ملفوفة بقطعة قماش ملطخة بالدماء، وهو يمسك بيده الأخرى قطعة لحم صغيرة دبقة اتضح أنها طرف سبابته اليسرى، فنسيتُ أمر داماسو تماماً.

بعد أن انتهيتُ من تضميد جرح السيد دومينغيز وأرسلته في سيارة أجرة إلى المستشفى مع طرف إصبعه الملفوف بالثلج، لاحظتُ أن باب الغرفة الخلفية مفتوح. وهناك، في الظلمة، تحت الضوء المعتم المتوهج كضوء القمر، وقف داماسو الصغير، وقميصه يتألق بأشكال عقاربي- نصف دزينة منها على الأقل- وهي تتسلق ظهره وتصعد وتنزل على طول ذراعيه.

لم أنطق بكلمة، ولم أتحرك. اكتفيت بمراقبته وهو يرفع يده بلا مبالاة إلى رقبته حيث خرج العقرب العملاق من ياقة قميصه، وراقبته وهو يلدغه مراراً، وهو يمسكه بين إصبعين ثم يعيده برفق إلى قفصه.

هـل كنـتُ مفتقـراً الى الشـعور بالمسـؤولية؟ هـل تمنيـت في قـرارة نفسي حـدوث مثـل هـذه النتيجـة، كنـوع مـن التجربـة المنحرفـة؟ ربـما. ربـما كان هنـاك جـزء منـي لم يسـتطع إلا أن يهـدم الحـد الفاصـل بـين الحيـاد والسـادية، ولكـن هـل ينطبـق هـذا المصطلـح أصـلًا؟ كيـف يمكـن للمـرء أن يكـون سـاديًا إذا لم تشـعر الضحيـة بـشيء؟ عـلى أيـة حـال، مـن ذلـك اليـوم فصاعـداً، وحتـى وأنـا أكتـب ملاحظـاتي وأرسـلها إلى جامعـة ولايـة بويـز (حيـث كان لـدى جـيري ليمونجيلـو، أحـد أبـرز علـماء الوراثـة في العـالم وصديقـي مـن أيـام دراسـتي في كليـة الطـب في غوادالاخـارا، مختـبر أبحاثـه المتطـور) أصبـح داماسـو رفيقـي الدائـم. بـدا مسـتمتعاً بالاهتـمام الـذي أوليتـه لـه أنـا وإلفـيرا، كونـه مـن عائلـة كبـيرة وفقـيرة. ومـع مـرور الوقـت بـدأ يكثـر مـن تنـاول العشـاء معنـا، بـل ويقـضي الليـل أحيانـاً عـلى سريـر نقـال في غرفـة الضيـوف. علّمتـه كل مـا أعرفـه عـن العقـارب وعناكـب الرتيـلاء أيضـاً، وبـدأتُ أُعلّمـه العلـوم الطبيعيـة عمومـاً والطـب خصوصـاً، وهـو موضـوع بـدا لي أنـه مولـع بـه بشـكل خـاص. وكان في المقابـل، يقـوم بأعـمال عرضيـة في المـكان، ككنـس ومسـح أرضيـات العيـادة، والتأكـد مـن توفـير مـا يكفـي مـن الصراصـير لتتغـذى عليهـا العقـارب، ومـا يكفـي الببغـاء مـن بـذور ومـاء وقطـع فاكهـة.

في هـذه الأثنـاء، ضغـط جـيري ليمونجيلـو للحصـول عـلى عينـة مـن الحمـض النـووي للصبـي، فأخـذتُ بعـض العينـات مـن داخـل فمـه الـذي كان قـد احـترق مـرات عديـدة - إذ أنـه، رغـم قدرتـه عـلى التمييـز بـين السـخونة والـبرودة، لم يكـن يملـك طريقـة لتحديـد مـا هـو

شديد السخونة أو شديد البرودة- وواصلتُ تجاربي المماطلة، أشياء بسيطة مثل اختبارات رد الفعل، ووخزات الإبر في أجزاء مختلفة من الجسم، وحتى الدغدغة (التي أثبت تأثره بها). وفي إحدى الأمسيات- وما زلتُ نادماً على ذلك- قلتُ له عرضًا إن الدبابير التي اختارت بناء عش ضخم تحت أفاريز العيادة أصبحت مصدر إزعاج حقيقي. كانت تهاجم مرضاي وهم ينحنون من خلال الباب الشبكي، وقد لسعتُ السيدة باديلا المسكينة مرتين في مكان حساس للغاية عندما جاءت لتلقي العلاج. تنهدتُ وتمنيت بصوت عالٍ لو أن أحداً فعل شيئاً حيال ذلك. وعندما نظرت عبر النافذة بعد خمس عشرة دقيقة، رأيته هناك، واقفًا على سلّم، يمزق العش بيديه العاريتين بينما كانت الدبابير تحاصره في سحابة سوداء هائجة. كان يجب أن أتدخل. كان يجب أن أوقفه. لكنني لم أفعل. كنت أشاهده ببساطة وهو يسحق الخلايا المليئة بالشرانق تحت قدميه ويصفع الدبابير البالغة حتى الموت وهي تلسعه دون جدوى. عالجت اللدغات بالطبع- وكان كل منها بمثابة تورم أحمر ملتهب- وحذرته من القيام بأي شيء أحمق مرة أخرى، وألقيت عليه محاضرة عن الجهاز العصبي وفعالية الألم كإشارة تحذيرية على وجود خطأ في الجسم. أخبرته عن المصابين بالجذام الذين تتآكل أصابع أيديهم وأقدامهم حتى النهاية بسبب فقدان الإحساس في الأطراف، لكنه لم يفهم ما أقصده وسألني:

«هل تقصد أن الألم شيء جيد؟»

«حسنًا، لا» قلت «الألم سيء بالطبع، وما نفعله في مهنتي هو

محاولـة مكافحتـه حتـى يتمكـن النـاس مـن مواصلـة حياتهـم ويكونـوا منتجـين ومـا إلى ذلـك»

«أمـي تعـاني مـن ألم» قـال وهـو يمـرر إصبعـه عـلى النتـوءات التـي عـلى سـاعده كـما لـو كانـت مجـرد أمـر جديـد «في ظهرهـا، بسـبب الانحنـاء عـلى الشـواية طـوال اليـوم، كـما تقـول»

«نعم. أعرف هذا» كانت تعاني من تمزق غضروفي.

صمتَ للحظة ثم قال «هل ستموت؟»

أجبتـه بـأن الجميـع سـيموتون. لكـن ليـس اليـوم وليـس مـن ألم الظهـر.

ارتسـمت ابتسـامة بطيئـة عـلى شـفتيه «إذن هـل يمكننـي البقـاء لتنـاول العشـاء؟»

بعـد ذلـك بوقـت قصـير، عـاد الأب مـرة أخـرى، ولكـن بمفـرده هـذه المـرة، ولا أسـتطيع الجـزم مـا إذا كانـت زيارتـه لهـا علاقـة بمغامـرة الدبابـير أم لا لكنـه كان مُـصرا عـلى مطالبـه، بـل وقحـاً تقريبـاً - «لا أعـرف مـا الـذي تظـن أنـك تفعلـه بابنـي، لكننـي أريـده أن يعـود»

كنـت جالسـاً وراء مكتبـي. كانـت السـاعة الحاديـة عـشرة صباحـاً، ومـن خلـف النافـذة، حومـت طيـور الطنـان فـوق أزهـار نبـات البـوق الورديـة، كـما لـو كانـت منحوتـة مـن الهـواء. تجمعـت الغيـوم في الأفـق. كانـت الشـمس كالزبـدة. كانـت إلفـيرا في الطـرف الآخـر مـن الغرفـة، وراء مكتبهـا، تكتـب عـلى جهـاز الكمبيوتـر الجديـد بينـما كان الراديـو يعـزف بصـوت خافـت لدرجـة أنني لم أسـتطع تمييـزه إلا كتيـار يتدفـق في الخلفيـة. رفـض الرجـل الجلـوس.

«ابنـك موهـوب للغايـة» قلـت بعـد لحظـة. ومـع أننـي لا أدري فيـما يتعلـق بمسـألة الله ويسـوع الخـارق للطبيعـة، إلا أننـي اسـتخدمت صـورة دينيـة لتعزيـز هـذه العبـارة، ظنًـا منـي أنهـا قـد تُحـرك رجـلًا مثـل فرانسيسـكو فونيـس، المشـبع بتقـوى طبقتـه الفقـيرة «بإمكانـه أن يُخلـص البشريـة، أن يُخلصنـا مـن كل آلام العصـور. كل مـا أريـده هـو المسـاعدة» لكنـه زجـر قائـلاً:

«هراء»

ورفعـت إلفـيرا رأسـها عـن الكتابـة، وأخفضـت نظارتهـا لتنظـر مـن فـوق أنفهـا.

«إنها الحقيقة» قلت له.

«هـراء» قـال ثانيـةً. وتأملـت كـم هـو ضحـل، وكـم هـو محدود وجاهـل ورازح تحـت ثقـل الخرافـات والجشـع الـذي يبتـلي كل جحافـل المعذبـين مـن أمثالـه «إنـه ابنـي،» قـال بصـوت يلامـس الأعـماق «وليس ابنـك. وإذا أمسـكته هنـا مـرة أخـرى، فسـأجلده بشـدة» تمالـك نفسـه بينـما ارتسـمت عـلى وجهـي ابتسـامة مريـرة «أنـت لا تعـرف، لكـن لـديّ طريقتـي. وإذا لم أسـتطع ضربـه، فسـأضربك أنـت يـا دكتـور، بـكل احـترام. وستشـعر بذلـك مثـل أي رجـل آخـر»

«هل تُهددني؟ إلفيرا» التفتُّ إليها «سجلي ذلك»

«بكل تأكيد» قال.

ثـم اختفـى الصبـي بـكل بسـاطة، لم يـأتِ إلى العيـادة صبـاح اليـوم التـالي ولا الـذي تـلاه. سـألتُ إلفـيرا عـن الأمـر، فهـزت كتفيهـا كأنهـا تقـول «لا بـأس». لكـن الأمـر لم يكـن كذلـك. لقـد أحسسـت بأننـي

أفتقد وجوده، ليس لأسباب أنانية فحسب (إذ كتب جيري ليمونجيلو ليخبرني أن عينة الحمض النووي غير صالحة للاستخدام ويحثني على أخذ عينة أخرى) بل لأنني تعلقتُ به بحب حقيقي، استمتعتُ بشرح الأمور له، وانتشاله من حمأة التضليل والجهل التي نشأ فيها، ولم أظن بأنني أخادع نفسي حين رأيتُه يسير على خطاي كعالم طبيعة أو حتى كطبيب. كان ذكياً، سريع البديهة، لديه فهمٌ سريعٌ للأشياء من حوله، وقدرةٌ على الملاحظة الدقيقة، لدرجة أنه، على سبيل المثال، عندما وضعتُ سرطانًا وعقربًا وعنكبوتًا على صينية أمامه، استطاع فوراً تمييز العلاقة بينها، وذكر أسماء العائلة والجنس والنوع الصحيحة التي علمته إياها. وكل هذا وهو لم يتجاوز سن التاسعة.

في صباح اليوم الثالث، عندما لم يكن له أثر، ذهبتُ إلى كشك فونيس في السوق، آملاً أن أجده هناك. كان الوقت لا يزال مبكراً، وكانت مرسيدس فونيس تُشعل النار في الموقد بينما كانت ست قطع من لحم الماعز الطازج (أو المذبوح حديثاً على الأقل) معلقة على رف خلفها (مغطاة، أذا أردنا التوضيح، بأسراب الذباب). ألقيتُ التحية، وبدأتُ أسألها، بطريقة ملتوية، عن صحتها، والطقس، ونوعية عنزتها، وعندما شعرت بالألم في لحظة ما ووضعت يدها على ظهرها، ثم استقامت ببطء لترمقني بنظرة عدائية قالت:

«لقد ذهب ليعيش مع جدته. في غوادالاخارا»

وانتهى الأمر. لم تكن مرسيدس فونيس لتُكمل كلامها، مهما ضغطتُ، وكذلك زوجها المُستهتر، وعندما كانت تُصادفها حالة

طبيـة طارئـة، صـارا يذهبـان إلى الجانـب الآخـر مـن البلـدة، إلى عيـادة منافـسي، الدكتـور أوكتافيـو ديـاز الـذي أكرهـه بشـدة، مـع أن هـذه قصـة أخـرى. يكفـي أن أقـول إن سـنواتٍ مضـت قبـل أن أرى داماسـو مجـدداً، مـع أننـي سـمعتُ- كـما سـمع الجميـع- شـائعاتٍ تُفيـد بـأن والـده كان يُجـبره عـلى السـفر مـن مدينـة إلى أخـرى كشـخصٍ غريـب الأطـوار في عـروض السـيرك، مُسـتغلّا موهبتـه بـلا خجـلٍ أمـام كل متفـرج سـاذجٍ يحـدق فاغـراً فمـه مقابـل بضـع بيـزوات يخرجهـا مـن جيبـه. كان الأمـر مؤسـفاً. كان جريمـةً. لكـن لم يكـن هنـاك مـا يُمكننـي فعلـه حيـال ذلـك، لا أنـا ولا جـيري ليمونجيلـو أو حتـى جميـع أعضـاء مجلـس أمنـاء جامعـة ولايـة بويـز. لقـد رحـل، وبقينـا نحـن.

حـلّ جيـلٌ آخـر مـن الحمائـم فـوق الأسـلاك، وازداد ترهـل إلفـيرا حـول خصرهـا وتحـت ذقنهـا، وبينـما كنـت أحلـق ذقنـي كل صبـاح، كنـت أراقـب النمـوّ الحتمـي للشـعر الأبيـض وهـو يزحـف عـلى طـول خـدّي ويصـل إلى سـوالف شـعري ثـمّ يسـتوطن تـاج رأسي. نهضـتُ مـن فـراشي، وفتحـتُ المـاء في المغسـلة، فرأيـتُ غريبـاً يحـدّق بي في المـرآة، رجـلاً عجـوزاً بنظـرةٍ جامـدةٍ في عينيـه المُعـاد تشـكيلهما. لقـد قضيـت حيـاتي وأنـا أشـخص الحصبـة والنـكاف والسـيلان، وأعجـن لحـم المـرضى، واسـتخدم منظـار الأذن والمحقنـة وخافضـة اللسـان، كـما لـو كان الأمـر برمتـه نوعـاً مـن العقـاب المُفـرط في درامـا سـوفوكلية[1] ثـم في ظهـيرة أحـد الأيـام، وأنـا عائـد مـن متجـر الحيوانـات الأليفـة بكيـسٍ بلاسـتيكي مـليءٍ بالصراصـير لعقـاربي الصغـيرة، انعطفـتُ عنـد زاويـةٍ فـإذا بـه هنـاك.

(1) نسبة الى سوفوكليس، الكاتب المسرحي التراجيدي الاغريقي.

تجمع حشد من أربعين أو خمسين شخصاً على الرصيف أمام مخبز غوميز، ينقّلون أرجلهم من قدم لأخرى بسبب الحرارة الحارقة. لقد بدوا مفتونين بما يشاهدون- لم يُلقِ أيٌّ منهم نظرةً عليّ وأنا أشقّ طريقي نحو المقدمة، متسائلًا مع نفسي عمّا يدور. وعندما لمحتُ فرانسيسكو فونيس، اندفع الدم إلى وجهي. كان يقف على جانب مسرحٍ نصب على عجل، نصف دزينة من المنصات الخشبية المكدسة، وهو يحدّق في الحشد بنظرةٍ يقظة، كما لو كان يحسب مكاسبه بالفعل. وعلى المسرح نفسه، كان داماسو، عاري الصدر وحافي القدمين، لا يغطيه سوى شورت ضيق لا يُخفي غير جزءٍ من جسده، يُسخّن نصل سكينٍ ذات مقبضٍ من اللؤلؤ على موقد للفحم حتى توهج باللون الأحمر. كان يبدو مثل القنفذ وعشرون سيخاً من تلك الأسياخ الفولاذية المقاومة للصدأ التي يستخدمها الناس في صنع الكباب مغروسة في كل مكان من جسده، بينها سيخ اخترق خديه. راقبته بذهولٍ كئيب وهو يرفع السكين من على الموقد ويضع شفرته على ظهر يده ليُسمع الناس صوت أزيز اللحم. تعالت شهقة من الحشد. أغمي على امرأة بجانبي بين ذراعي زوجها. لم أفعل شيئاً. فقط شاهدت داماسو، بجسده الملطخ بالندوب، وهو يعثر بصعوبة على قطعة من الجلد السليم فوق قفصه الصدري ويغرز السكين فيها.

أردتُ أن أصرخ من الخجل، لكنني تمالكتُ نفسي. وفي اللحظة الحاسمة، استدرتُ واختفيت بين الحشد، منتظراً فرصتي. قام الصبي (كان مراهقاً آنذاك، في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة حسب

تقديري) بأعمال تعذيب لا داعي لان أذكرها هنا، ثم دارت القبعة بين المتفرجين، وجُمعت البيزوات، وانطلق الأب والابن نحو منزلهما. تبعتهما من مسافة بعيدة، وصوت صراصير الليل يخشخش على جوانب الكيس. راقبتُ الأب وهو يدخل المنزل (كان أكثر فخامة الآن، بعدة غرف جديدة مكتملة الهيكل وتنتظر العامل الذي يفرش سقوفها بورق القطران المشمع والبلاط) بينما توجه الصبي إلى ثلاجة بلاستيكية صفراء مثبتة على الدرجات الأمامية، وأخرج زجاجة كوكاكولا، وجلس على الكرسي المتهالك على الشرفة كما لو كان في الخمسين من عمره. انتظرتُ لحظةً حتى انتهى من مكافأته البائسة ووضع الزجاجة بين قدميه، ثم تجوّلتُ بعفويةٍ أمام المنزل كما لو كنتُ اسير في الحي. وعندما دنوت منه وتأكدتُ من أنه رآني توقفتُ في مكاني ونظرتُ إليه نظرةَ دهشةٍ مُصطنعة، إن صحّ التعبير، وهتفت به.

«داماسو؟ أهذا أنت حقا؟»

رأيتُ شيئاً يضيء في عينيه، لكن عينيه فقط، فقد بدا عاجزاً عن رسم ابتسامة بشفتيه. في اللحظة التالية، نهض من على الكرسي وسار نحوي عبر الفناء، مادّاً يده لتحيتي وقال:

«دكتور»

ورأيتُ تغير لون شفتيه، ونقطتي الدم الجافتين على خديه وسط ما يبدو مثل ساحة معركة من الندوب المتصلبة. لم أكن لأشعر بصدمةٍ وشفقةٍ أكبر لو كان هذا ابني حقاً.

«لقد مرّ وقتٌ طويل» قلتُ، فوافقني.

كان عقلي يسابق الزمن. كل ما كنتُ أفكر فيه هو كيفية إخراجه من هناك قبل أن يخطو فرانسيسكو فونيس عبر الباب «هل ترغب في المجيء معي إلى العيادة لتناول العشاء؟ من أجل ذكريات الماضي؟ إلفيرا تُحضّر لازانيا الباذنجان الليلة، مع سلطة مقرمشة لذيذة وخرشوف مقلي، وانظر...» رفعتُ كيس الصراصير وهززته «يمكننا إطعام العقارب. هل تعلم أن لديّ واحدا أكبر بمرتين تقريبا من العقرب العملاق- نوع أفريقي؟ يا له من جمال، جمال حقيقي...»

وها هي ذي، تلك النظرة العابرة، نفس الالتفاتة التي ندّت عنه ذلك اليوم في الكشك عندما كان طفلاً، وفي اللحظة التالية انطلقنا جنباً إلى جنب، وتركنا المنزل خلفنا. بدا وكأنه يمشي بتأنٍّ أكثر من ذي قبل، وكأن السنين قد أثقلت كاهله بطريقة لا تسبر غورها (أو تُسبر غورها، تسبر غورها تمامًا، حتى الأعماق الصدئة لقلب والده)، فأبطأت خطواتي لأُجامله، قلقًا من فكرة أنه قد ألحق ضررًا لا يُعوض بالعضلات والأربطة والغضاريف، بل وحتى بالجهاز العصبي نفسه. مررنا بالمسلخ حيث كان ابن عم والدته، ريفوجيو، يذبح الماعز لتجهيز مطعم العائلة، ثم واصلنا طريقنا عبر البقايا الجافة (التي تسكنها السحالي) لما كان آباء البلدة يدعونه حديقة، ثم صعدنا التل الطويل المنحدر الذي يقسم بلدتنا حسب الطبقة والدخل، والتعليم على وجه الخصوص. غمرت رائحة لازانيا إلفيرا المباركة الحي بأكمله ونحن نتجه نحو العيادة.

كنا نتحدث عن أمور تافهة، عن عيادتي، وعن الببغاء- أجل، إنها بخير، شكرًا لك- وعما يدور في القرية من ثرثرات، وعن الطقس، لكن لم نتحدث عن حياته أو أسفاره، أو مشاعره. لم يبدأ بالانفتاح عليّ إلا بعد أن أدخلته إلى الغرفة الخلفية تحت الضوء الخافت، وفي يده كوب من الشاي المثلج المُحلى وطبق من الحلوى في حجره. قلتُ في لحظة، والعقارب تتوهج كأشباح في أقفاصها:

«داماسو، لا يبدو أنك في حالة معنوية عالية. أخبرني ما الأمر؟ هل يتعلق الامر بـــ.. أسفارك؟»

في الظلام، ورائحة العناكب الخَلِّيّة تضرب أنوفنا، والرائحة القادمة من مطبخ إلفيرا تعدنا بطعام شهي، وضع كأسه بحرصٍ ونفض الفتات عن حجره قبل أن ينظر إليّ «نعم» قال بهدوء، ثم أعاد بمزيد من التأكيد «نعم»

صمتُ للحظة. وندّت مني نظرة خاطفة على عقربي العملاق وهو يستكشف حدود قفصه. وانتظرتُه ليكمل.

«ليس لديّ أصدقاء يا دكتور، ولا واحد. حتى إخوتي وأخواتي ينظرون إليّ كغريب. والأولاد في جميع أنحاء المنطقة، في أصغر البلدات، يحاولون تقليدي» كان صوته متوترًا، نبرة رجل بالغ، نبرة أبيه، في صراع مع أنفاس طفل متقطعة «يفعلون ما أفعله. وهذا يؤلمهم»

«لستَ مضطرا لفعل هذا بعد الآن يا داماسو» شعرتُ بحرارة مشاعري «هذا خطأ، خطأٌ كبير. ألا ترى ذلك؟»

هزّ كتفيه وقال.

«لا أملك خياراً ثانياً. أنا مدينٌ لعائلتي. لأمي»

«لا» قلتُ له « لست مديناً لهم بشيء. لا بنفسكِ، ولا بجسدكِ، ولا بقلبكِ»

«أمي هي التي جاءت بي الى هذا العالم»

«وأنا أيضا» أجبته بسخرية.

ساد الصمت. وتابعتُ بعد لحظة:

«لقد وُهبتَ نعمةً عظيمة يا داماسو، ويمكنني مساعدتك في ذلك- يمكنك العيش هنا معنا، معي ومع إلفيرا، ولن تضطر أبدًا للخروج إلى الشارع و... وإيذاء نفسك مرة أخرى، لأن ما يفعله والدك شرير يا داماسو، شرير، ولا توجد كلمة أخرى تصفه»

رفع يده المجروحة وتركها تسقط مرة أخرى وقال:

«عائلتي أولاً يأتون أولاً دائماً. أعرف واجبي. لكن ما لن يفهموه أبداً، ما لا تفهمه أنت، هو أنني أتألم، إنني أشعر بالألم، أشعر به» ورفع تلك اليد نفسها ونقر على عظمة صدره، مباشرة فوق المكان الذي ينقبض فيه قلبه ويمدد ويندفع الدم في عروقه «هنا» قال «هنا حيث أتألم»

ومات بعد أسبوع.

لم أسمع بالأمر إلا بعد أن ضمّه التراب، وبعد أن جهز جيري ليمونجيلو حقائبه استعداداً للرحلة الطويلة من بويز على أمل جمع عينة من الحامض النووي بنفسه، لكن الأوان كان قد فات، وها هي مرسيدس فونيس تستنشق الدخان والدموع، وتثبت يدها

اليائسة على أسفل ظهرها وهي تنحني فوق الشواية، بينما زوجها يجوب الشوارع في قميص قذر، ثملًا كأي متشرد متبطل. يقولون إن الصبي كان يتباهى أمام الأولاد الفقراء الذين كانوا يتبعونه كما لو كان واحداً من الآلهة، من نوع الأولاد الذين يكبرون في أحضان الألم، الذين يعيشون ليسببوه ويستخلصوه كما لو كان شيئاً يمكن لمسه وقياسه وحمله مثل شيء ثمين، من نوع الأولاد الذين ينقشون رموزاً هيروغليفية على جلودهم بشفرات الحلاقة ويسمونها موضة. كان مبنى من ثلاثة طوابق.

«اقفز!» صاحوا به «اقفز يا سين دودلور! سين دودلور!»

وقفز، ولم يشعر بشيء.

لكن ما أتساءل عنه- وليرحم الله فرانسيسكو فونيس وأمه أيضًا- إن كان يعلم حقًا ما يفعله، إن كان فعل ذلك بسبب الحزن أو بداعي التظاهر بالشجاعة. لن نعرف الجواب أبداً، ولن نرى مثله أبداً، مع أن جيري ليمونجيلو أخبرني أنه سمع عن صبي في باكستان بنفس الطفرة، صبي آخر يقف في ساحات المدن ويشوّه نفسه ليسمع صيحات الاستحسان والتصفيق، وليجمع المال الملقى عند قدميه.

في غضون عام، طوى النسيانُ داماسو. احترق منزل عائلته وتحول إلى رماد حول بقايا مدفأة تعمل بالكيروسين، ونفقت الماعز واشتعلت المجمرة بدونه أما أنا فقد أغلقتُ العيادة وانتقلتُ نهائيًا، مع إلفيرا وببغائها، إلى بيتنا الصغير على شاطئ البحر. أقضي أيامي الآن تحت أشعة الشمس، أعتني بحديقتنا المتواضعة،

وأتمشى على الشاطئ الأبيض كالسُكّر لأرى ما يحمله المد والجزر. لم أعد أمارس الطب، ولكن الناس ينادونني هنا بـ «عزيزي الطبيب»، وفي بعض الأحيان، في حالات الطوارئ، يأتي مريض إلى باب منزلي. قبل أيام قليلة، دخلت طفلة صغيرة في الثالثة أو الرابعة من عمرها، ملفوفة بين ذراعي والدتها. كانت تلعب في برك المد والجزر أسفل منحدرات الحمم البركانية التي ترتفع من الرمال كأرغفة خبز كثيفة بعيدة، كانت قد وطأت قنفذ بحر فانكسرت إحدى الأشواك السوداء الطويلة التي يستخدمها الحيوان للدفاع عن نفسه تحت وطأة وزن الطفلة، وانغرست في باطن قدمها. هدأتها قدر استطاعتي، متحدثاً معها بنعومة بهراءٍ لا معنى له لمجرد صرف انتباهها، كل ما يهم في مثل هذه الظروف هو نبرة الصوت.

كنت أهمهم، وكان البحر يهمهم على طول الشاطئ. أمسكت بكعبها الصغير بيدي بأقصى ما استطعت من رقة، وأمسكتُ بالجزء الأسود الأملس بقبضة ملقطي، وسحبته بسهولة من اللحم، ويجب أن أخبركم أن تلك الفتاة الصغيرة صرخت حتى اهتز زجاج النوافذ، صرخت كما لو لم يكن هناك أي ألم آخر في هذه الدنيا!

كل كلب ينبغي أن يحظى بإنسان
كوري فورد[1]

كل كلب ينبغي أن يملك إنساناً خاصاً به. ما من شيء أروع من تواجد إنسانٍ لطيفٍ مهذبٍ في البيت لينشر للكلب فراشه ويجلب له عشاءه حين يعود الى المنزل ليلاً وقد هدَّهُ التعبُ كما لو كان إنساناً!

إن إنساناً حسن التدريب يمكن أن يكون خير صديقٍ للكلب. فقد حدث مثلاً أن امتلكني كلبُ صيدٍ إنكليزي متوسط الحجم عندما كان في الشهر السادس من عمره، ليواظب منذ ذلك الوقت على تدريبي بنجاحٍ كامل. فعلمني مصافحته، وجلبَ كُرَته، وتعلمت أن لا أشد بقوة على الرسن حين يصطحبني للنزهة. وأنا الآن مروَّضٌ تماماً على الحياة المنزلية، كما تمكنت من جعله رفيقاً مخلصا وحميماً.

إن السر في نجاح الكلب في التعامل مع البشر يكمن في الصبر بعض البشر بطيئون في الاستجابة، لكن الكلب الذي يتسم بالحلم ويحاول أن يضع نفسه في مكان الإنسان سوف يفوز بصديقٍ وفي. إن

(1) Corey Ford كاتب أمريكي. ولد في نيويورك عام 1902 وتوفي عام 1969 تخرج من جامعة كولومبيا وعاش عازبا مفضلاً رفقة كلابه. امتاز بإنتاجه الغزير في صحف عصره ومجلاته مطوراً أسلوبا خاصا به في الكتابة الهزلية. كتب العشرات من الكتب الهزلية والأعمال المسرحية وسيناريوهات الأفلام وخدم كولونيلاً في سلاح الجو في أثناء الحرب العالمية الأولى. من أعماله المعروفة كيف تقول كم عمرك 1950، هل رآني أحدهم مؤخراً 1959، دليل الى التفكير 1961، يوم لم يحدث شيء 1959.

كلبي مثلاً قد أفلح في ترويضي الى الدرجة التي قررت فيها أن أدوّن بعض القواعد الأساسية في معاملة البشر لتكون دليلا للكلاب الأخرى التي قد تمتلك أقراناً لي.

المشكلة الأولى هي انتقاء الإنسان المناسب، إذ يجب على الكلب أن يتوخى الكثير من الدقة عند الاختيار، طالما إنه معرض الى التعلق الشديد بإنسانه حتى لا يعود من اليسير أن يتخلص منه لاحقاً إذا لم يحز على رضاه. كل كلبٍ يرغب طبعاً بامتلاك إنسان ممتاز، لكن الخصال المرحة المهذبة أكثر أهمية من سلالة النسب المكلفة. وأنا مثلاً لم يتم تسجيلي قط، لكن كلبي يحبني كما لو كنت منحدراً من سلالة طويلة من ذوي الدم الأزرق.

إن أهم ما يجب البحث عنه هو الأسنان القوية واللثة السليمة والمعطف الجيد والسلوك الواثق. وتذكّر أن تقدير الكلب واحترامه يتأثران بالإنسان الذي يسير خلفه، لذلك عليك ألاّ تقبل بنموذج مهزول أو صغير الجسم. وقبل أن تقتني رجلاً من المستحسن أن تسير به جيئة وذهاباً عدة مرات لكي تتأكد من سلاسة حركته ومرونة أطرافه.

والأمر الثاني الذي ينبغي تقريره هو إن كان ينبغي أن يتشارك الرجل والكلب في المسكن. فبعض الكلاب يفضل وجاراً منفصلاً لأنه أكثر نظافة، لكن كلبي قرر منذ البداية أن ينتقل من فوره معي الى المنزل. وكان لي الحق في استخدام أي كرسي أشاء عدا ذلك المقعد الوثير الكبير في غرفة المعيشة فقد كان مخصصا له وحده.

إن تدريب الإنسان يستغرق بالطبع بعض الوقت. وعلى الكلب

أن يـدرك أن الإنسـان لا يملـك مـا يضاهـي مواهـب الكلـب الطبيعيـة وأن الخطـأ ليـس خطـأه حـين يعجـز الإنسـان عـن فهـم رغباتـه. إن البـشر عرضـة لأن يكونـوا مزاجيين ومرهفـين، والكلـب الـذي يفقـد أعصابـه لـن ينجـح إلا في تحطيـم نفسـية الإنسـان.

إن أحـد أصدقائـي، والمملـوك مـن كلـب مـن فصيلـة «سـبانيارد» قـد عاملـه كلبـه في الأيـام الأولى بطريقـة بالغـة الفظاظـة؛ فعندمـا لم يقـدم لـه صديقـي وجباتـه في وقتهـا، عـلى سـبيل المثـال، زمجر وعضـه في سـاقه. وكانـت النتيجـة أن أصيـب صاحبـي بحالـة مـن الخجـل مـن الـكلاب فصـار كلـما أبـصر كلبـه قادمـاً هـرع الى الزحـف تحـت الأريكـة حتـى قـرر الكلـب في النهايـة أن يتخلـص منـه.

إن مـن الخطـأ الفـادح اسـتخدام القـوة في ترويـض الإنسـان، إذ ينبغـي تقليـل العقـاب الى الحـد الأدنـى وقـصره عـلى حـالات العصيـان المتعمـد. إن نظـرة توبيـخ واحـدة يمكـن أن تفعـل أكثـر ممـا يفعلـه الغضـب وفقـدان الأعصـاب. ولم يحـدث أبـداً أن رفـع كلبـي براثنـه نحـوي، لكنـه عالجنـي تمامـاً، تقريبـاً، مـن عـادة الفـرار مـن البيـت. وعندمـا كان يـراني أحـزم حقيبتـي، كان يكتفـي بالاسـتلقاء عـلى الأرض والتحديـق بي في وجـوم وقـد أراح حنكـه عـلى قائمتـه الأماميـة. وكنـت في العـادة أنتهـي الى إفـراغ حقيبتـي وإلغـاء حجـزي في القطـار.

ويرتكـب الكثـير مـن الـكلاب الخطـأ الإضـافي المتمثـل بالاسـتعجال في ترويـض الإنسـان. إن دقائـق معـدودات مـن التنـزه في الحديقـة في كل أمسـية تعـد كافيـة، كـما إن الطالـب سـيظل متحمسـاً لـدرس اليـوم التـالي. حـوّل كل درس الى لعبـة، وكافـئ إنسـانك في كل

مرة يبلي فيها بلاءً حسناً. إن كل إنسان حريص على إرضاء كلبه، وسوف يستجيب بامتنان لأية التفاتةٍ عرضية مثل هز الذيل.

إن أول ما ينبغي تعليمه للإنسان هو البقاء في أثر الكلب. ولإنجاز هذا الدرس ينبغي للكلب أن يثبت إحدى نهايتي مقودٍ جلدي طويل الى طوق رقبته ويلفّ النهاية الثانية حول رسغ الإنسان كي يمنعه من الإفلات. ابدأ بالنزول الى الشارع على مهلٍ وتوقّف عند كل عامود للهاتف الى أن يدرك الإنسان أنه تحت السيطرة. قد يبدي الإنسان بعض العناد في البداية، لكن الأمر يمكن معالجته بأن ينزلق الكلب بخفة بين ساقي الإنسان ثم يلف المقود حول عقبيه. أما إذا حاول الإنسان أن يهرب متقدماً على الكلب فيكفي أن تثبت أقدامك الأربعة وتتوقف فجأةً ليهوي الإنسان على ظهره. وبعد بضع تجارب كهذه سيكون الإنسان مروضاً تماماً ولسوف يتبع كلبه طائعاً مختاراً. لكن عليك أن تتذكر أن كل هذه الجهود من أجل التدريب والانضباط ينبغي أن تعد ضرباً من الرياضة، وبعد أن ينبطح الإنسان على الرصيف فإن على الكلب أن يسرع نحوه ويلعق وجهه ليريه أن الأمر مجرد مزاح.

وهناك لعبة أخرى ينبغي تعليمها لكل إنسان ألا وهي إعادة الكرة المطاطية. ولقد كانت الطريقة التي علمني بها كلبي في غاية السهولة. فقد كان يرقد في منتصف الأرضية فيما كنت أمسك بالكرة على الطرف البعيد من الغرفة ثم أدحرجها نحوه على طول السجادة لافظا كلمة «أجلبها!» بينما يراقب الكلب الكرة باهتمام وهي تتدحرج وتجتازه للتوقف تحت الأريكة. ثم أسير الى الجهة

الأخرى من الغرفة وأخرج الكرة من تحت الأريكة لأدحرجها نحوه من جديد مصدراً الأمر نفسه: أجلبها!. وكان علينا تكرار الدرس الى أن ينام الكلب. وبعد أن تعودت على استعادة الكرة في كل مرة أقول فيها «أجلبها» أبدل كلبي الكرة بأشياء أخرى لألتقطها مثل عظمة قديمة أو قطعة من الورق المشمع يعثر عليها في سلة المهملات، وبهذا لم أتعلم الحفاظ على نظافة البيت وحسب، لكن الانحناء المتكرر أثبت فائدته لخاصرتي. ومسألة اللياقة البدنية مهمة للغاية؛ فالرجل الذي لا يستقيم في مشيته أو الذي تتدلى مؤخرته المتهدلة يعكس انطباعا سيئاً عن الكلب الذي يملكه. وإن أفضل طريقة للحفاظ على مظهره هي زجه بالعمل بدون توقف وعدم منحه فرصة لالتقاط أنفاسه. إن دفعه الى التسابق جيئة وذهابا على قارعة الطريق وهو مشدود الى الرسن هو، على سبيل المثال، من الأمور التي تزيد لياقته البدنية. وإذا ما حاول الإنسان أن يرتمي في مقعدٍ وثير حال عودته فإن على الكلب أن يقفز فوراً الى ذلك الكرسي ويرغمه على الجلوس على كرسي مستقيم الظهر كي يحسِّن قوامه.

تأكد من إيقاظه ثلاث أو أربع مرات خلال الليل وإرغامه على الخروج للتنزه، خصوصاً في الجو الماطر ولنظام التغذية أهمية مساوية. فالرجل العادي يميل الى التهام كل شيء يقع تحت ناظريه، وعلى الكلب أن يمارس تأثيراً كابحاً على شهية الإنسان وذلك عن طريق تناول كل بقايا الطعام قبل أن تتاح للإنسان فرصة ذلك.

أخيراً وليس آخراً، فإن مسؤولية اختيار الرفقة المناسبة للإنسان

تقع على عاتق الكلب، فإذا لم يرق له أحد الضيوف المدعوين الى المنزل فما عليه إلا التعبير عن امتعاضه عن طريق انتزاع خرقة صغيرة من سروال الضيف كتلميح رقيق. وأنا شخصيا أتطلع الى رؤية بائع الحليب في هذه الأيام لأنه الشخص الوحيد الذي يسمح له كلبي بدخول المنزل.

وليست كل الكلاب التي تحاول تربية الإنسان ناجحة مثل كلبي، والسر يكمن في «التفهم». فعلى الكلب أن يتحلى بالصبر ولا ينتابه الغضب إذا فشل الإنسان في تعلم اصطياد الأرانب أو التسلل من تحت الأسيجة كما تفعل الكلاب.

على أية حال، وكما اعتاد كلبي أن يقول.

«من الصعب أن تعلّم إنساناً عجوزاً حيلاً جديدة!»

الثياب تصنع الإنسان
هنري ديفيرنوا[1]

«لا أحب هذا!»

تذمر «تانغو» ثانيةً «لن أشعر بالارتياح وأنا أروح وأجيء في هذه الثياب»

«إخرس والبسها!»

أمر «ميرو» فأذعن «تانغو» كالعادة.

كان ميرو بنصف حجم تانغو، لكنه كان «الأذكى» فلو كان لتانغو أن يملك ذيلا لدلاّه حتماً بين ساقيه إذا تحدث ميرو.

- «والآن، هل رأيت؟» قال ميرو «ماذا قلت لك؟ يبدو رائعاً. أليس كذلك؟ أنظر وعندك صافرة أيضا!»

- «لا بأس»

اعترف تانغو وهو يستعرض صورته في المرآة. ثم رفع صدره الضخم ودفع منكبيه العريضين الى الوراء. فما كان من «الحنكليس» (الرجل الخفيف الميال الى الصمت الذي يشارك ميرو في العمل) إلا أن يفتح فمه (وهذا لا يحدث إلا نادراً) ليصيح بإعجاب:

---

(1) هنري ديفيرنوا (Henri Duvernois) واسمه الحقيقي «هنري شواباشير» (١٨٧٥-١٩٣٧)، كاتب وصحفي وسيناريست فرنسي. تشمل قصص دوفيرنوا الشعبية الحزينة والساخرة عن الحياة اليومية في باريس والمتأثرة بموباسان، روايات مثل «كرابوت» (١٩٠٨)، و"فوبورغ مونمارتر» (١٩١٤)، و"إدغار» (١٩١٩)، و"ماكسيم» (١٩٢٧). كما نشر مجموعة من المسرحيات الكوميدية من فصل واحد (١٩٢٨). ترجم الكثير من أعماله الى اللغة الانكليزية.

«يا ولد! أليس وسيماً!»

ولم يكن في ذلك شك. ألقى تانغو نظرة مترفعة. كانت البذلة تناسبه تماماً وكأنها فصلت من أجله عند أفضل خياط في باريس. وبدت عيناه الصغيرتان أكثر إشراقا تحت مقدّمة قبعته الأنيقة، حتى أن شيئاً من الذكاء قد لاح فيهما.

«كف عن تحديقك الأبله بنفسك واغسل هذه التكشيرة الغبية عن وجهك» صاح ميرو في نفاد صبر «ثم اسمع. هذا أمر في غاية السهولة حتى أن أي أحمق يستطيع فعله، لذلك فإنك (ربما) تنجح فيه إذا بذلت قصارى جهدك»

ابتعد تانغو عن المرآة وهو يشعر بالأسف. وتغضنت جبهته العريضة في تعبير مؤلم حاول من خلاله أن يظهر تركيزه العقلي.

- «كل ما عليك فعله هو أن تروح وتجيء في الشارع» قال ميرو «في بطء وهدوء، مثل شرطي حقيقي أثناء المناوبة. عندها لن يرتاب أحد إذا سمعنا ونحن نعمل داخل البيت ما داموا يرونك قربه. واظب على المشي حتى نخرج، ثم تسكع بضع دقائق أخرى كي تغطي انسحابنا. وهذا كل شيء. سوف نعود ونلتقي ها هنا. هل فهمت؟»

- «بالتأكيد» أجاب تانغو وعيناه تزيغان نحو المرآة.

- «انطلق إذن!» صاح ميرو محتداً.

أحس تانغو بشيء من القلق وهو يلج الشارع. أما ميرو والحنكليس فقد سارا في حذر وترقب غير أن شيئاً لم يحدث. كان حياً مترفاً، ومن خلال الضياء الخافت للمصباح المظلل المنتصب

في زاوية الشارع كان في مقدور تانغو أن يتأمل أناقة منازله الرزينة، المتينة، النظيفة.

كان المنزل الذي ستجري فيه العملية يتوسط صفا من البيوت، أمامه حديقة مسيجة. وكان ميرو والحنكليس قد درساه ملياً: في إحدى جدران الطابق العلوي رقدت خزانة معدنية مثقلة بحمولة وفيرة، إذ يبدو أن أصحاب المنزل لم يكونوا ممن يؤمنون بالمصارف. «لكن الظاهر انهم سيؤمنون بها منذ اليوم» كما قال ميرو.

تساءل تانغو كيف تكون الحياة في منزل رائع كهذا، لكن إجهاد الخيال أمر بعيد عن قدرته. لم يكن قد رأى شارعا كهذا من قبل إلا فيما ندر، فقد عاش حياته وعمل في الأحياء الرثة من باريس: ينشل المحفظات أحيانا، ويسرق من معروضات المتاجر أحيانا أخرى، حتى إنه مارس الاستجداء، نعم، لقد كان بارعا في الاستجداء. كان رجال الأعمال الرعاديد يدفعون على الفور عندما تشرف عليهم أكتاف تانغو الهائلة، فينظرون في هلع الى اليدين الضخمتين ثم ينبشون جيوبهم بحثا عن أية قطع نقدية صغيرة.

سار تانغو متمهلا عبر الرصيف، ثم استدار عند المنعطف وأقفل راجعاً. في منتصف الطريق لمح خيال الرجلين وهما ينسلان من فوق سياج الحديقة ثم يغيبان عن الأنظار: كان ميرو والحنكليس يباشران العمل.

وانخرط تانغو في التفكير بشكله الذي رآه في المرآة. كانت الصورة المؤثرة ما تزال حية في ذهنه، فاندفع يسوي كتفيه ويرفع

صدره من جديد. ثم وقف منتصباً وجرب أداء التحية العسكرية، فأحس بنشوة غريبة وضحك مع نفسه، وعاود المسير.

عندما هم بالاستدارة عند المنعطف المقابل وقعت عيناه على ضابط شرطة!

كان منظر مثل هذا كافيا في العادة لدفعه الى الفرار بأقصى ما تستطيع رجلاه. لكنه تسمر في مكانه وأخذ يحدق في رعب. وخيل اليه أن الضابط يتفرس فيه في فضول وهو يزداد قرباً. وتصلب جسده وعرقت يداه. واستطاع بجهد جهيد أن يكبح دافعه الغريزي الى الفرار. واختضت اوصاله ثم -حين لم يعد بينه وبين الضابط غير بضعة أقدام- رفع ذراعه المتصلبة وأدى التحية، فردها عليه الضابط دون اكتراث ومضى في سبيله.

وقف تانغو وظل يحدق فيه وهو يبتعد، ورويدا رويدا غمره شعور غريب بالرضا.

«ياه!» خاطب نفسه «ياه!.. هل رأيت؟ لقد أديت التحية وردها عليّ من فوره..ياه.أليس هذا رائعاً؟!»

ومنحه الأمر شعوراً خارقا بالسعادة حتى أنه أوشك أن يهرول الى الضابط ويؤدي له التحية من جديد.

ودفع كتفيه الى الوراء حتى ازدادتا استقامة، وعاود المسير على طول الرصيف، منتصباً ممتلئا بالزهو والفخار، وعندما بلغ المنعطف توقف هنيهة وأرجح جسده مستنداً على عقبيه، كما يفعل أي شرطي محترف.

- «أظن أنني بدوت رائعاً في نظره» قال لنفسه «أظن أنه لا

يصادف الكثير من رجال الشرطة في مثل روعتي»

بعد بضع جولات أبصر عجوزاً بدا عليها التردد بعد أن همت مرتين بعبور الشارع ثم تراجعت مذعورة في المرتين.

أندفع تانغو نحوها، وانغرس أمامها كالرمح وأدى لها التحية، حتى إنه لم يلحظ الحقيبة السمينة في يدها. ثم قدم لها ذراعه فنظرت اليه وحيته بابتسامة جميلة وقالت:

«أوه. شكراً أيها الضابط!»

كان الشارع خاليا تماماً من السيارات، لكن تانغو رفع ذراعه الثانية في جلال وكأنه يأمر بإيقاف قطيع من الشاحنات المزمجرة. وعبرا الى الرصيف المقابل في وقار عظيم. لقد كان مشهداً مؤثراً حقاً.

- «شكراً جزيلاً أيها الضابط» قالت السيدة العجوز.

- «أرجوك سيدتي. الأمر لا يستحق الشكر» وتوقف قليلاً ثم أردف «هذا واجبنا كما تعلمين»

وأدى لها التحية مثل فارس نبيل. ووقف مزهواً يراقب شخصها المبتعد. وقبل أن تختفي تماماً رمقته بناظريها وحيته بابتسامةٍ أخيرة، فانتصب بشدة جعلت الثياب تضيق على صدره ثم أدى لها تحية أخرى.

ومضى سائراً في الزقاق وهو يحيي بين الفينة والأخرى. وجاش في صدره شعور لا يوصف. لم يكن في باريس برمتها مثال مهيب قوي لحارس للقانون والنظام مثل تانغو!

وتقدم خارجاً من العتمة شبحٌ مترنسح لرجلٍ رث الخلقة

يجرجـر أقدامـه ويلـوح بيديـه في عـداء ويتمتـم بنعـوتٍ رهيبـة غـير مفهومـة، وحـين وقعـت عينـاه المحمرتـان عـلى تانغـو عبـس وصـاح.

«هيه، أنت أيها الشرطي المقمّل!»

سرت صدمة عميقة في أوصال تانغو فصاح بالرجل.

- «تعال الى هنا، تقدم، تقدم»

-»شرطـي سـمين جبـان!» دمـدم السـكران «كيـس الهـواء الكبـير المحشـور في البذلـة. إضرب الرجـل الضئيـل ودع اللصـوص الكبـار يمـرون. هـذا كل مـا تجيـدون. تضربـون الرجـل الصغـير و

وتصاعـد في صـدر تانغـو خليـط مـن الغضـب والهيـاج، واحمـر وجهـه مـن الغيـظ.

«أنـا أبصـق عليـك!» أعلـن السـكران في احتقـار «هـاك» ونفـذ مـا توعـد بـه.

وقـرع شيء مـا في رأس تانغـو. كان وجهـه الان ورديـا تمامـاً. وأمسـك بالرجـل بيـد واحـدة عملاقـة ونفضـه في غضـب، وبـدون أيـة فكـرة واضحـة عـما ينـوي فعلـه جرجـره الى الشـارع.

كان الرجـل المشـدوه قـد تملكـه الرعـب فاستسـلم ولم ينبس بكلمة. لكـن تانغـو أصبـح خارجـاً عـن طـوره، وعندمـا شـاهد صاحبيـه وهمـا ينزلقـان مـن فـوق سـياج الحديقـة ويحطـان عـلى الرصيـف بالقـرب منـه لم يعـد في مـزاج يسـمح لـه بالتوقـف.

«أنـت أيهـا الأحمـق، مـاذا تفعـل؟» همـس لـه مـيرو في غضـب «أتريـد أن تخـرب العمـل كلـه؟ أتركـه أيهـا المغفـل» وصفَعـه عـلى خـده

ودومـت في رأس تانغـو مشـاعر لايمكـن وصفهـا؛ تذكـر المـلازم

وهو يرد على تحيته، وتذكر السيدة العجوز وهي تنظر اليه في إعجاب وامتنان، تذكر صورته الفخمة في المرآة، وتذكر ما قاله السكران.

وتصاعد في داخله غضب هائل. وبينما كان ميرو والحنكليس يحدقان فيه وقد شلهما الخوف وضع الصافرة اللامعة في فمه وأطلق سلسلة من النفخات العالية الطويلة التي تكفي لاستدعاء كل رجال الشرطة في باريس.

«لصوص، سُرّاق» جأر بأعلى صوته «أنا ألقي القبض عليكما، ألقي القبض عليكما باسم القانون!»

التنين الحادي والخمسون
هيوود براون[1]

من بين جميع الطلبة في معهد الفروسية كان «جاوين لو كور هاردي»[2] أقلهم تبشيراً بالخير. كان قوياً طويل القامة، لكن مدرسيه سرعان ما اكتشفوا أنه يفتقر الى العزيمة، فقد كان يسرع الى الاختباء في الغابة حين يبدأ درس المثاقفة[3]، رغم أن زملاءه وأعضاء المعهد كانوا يحثونه على إبراز أفضل ما في طبيعته بأن يصيحوا به كي يخرج ويدق رقبته كما يفعل الرجال. وحتى عندما كانوا

---

(1) Heywood Campbell Broun (1888-1939) صحفي وناقد وناشط سياسي أمريكي. أسس نقابة الصحف الأمريكية وشارك بقلمه في الدفاع عن المحرومين والمظلومين وكان مؤمناً بقدرة الصحفي على معالجة الشرور والأمراض الاجتماعية والأخلاقية. بدأ حياته المهنية كاتباً للتعليقات الرياضية ثم تحول الى ناقد درامي الى جانب استمراره في كتابة الأعمدة اليومية وأشهرها عمود أسماه «يبدو لي» وواظب على كتابته لسبع سنوات. شارك دون نجاح في انتخابات الكونغرس لعام 1930 ممثلاً عن الاشتراكيين وكان أحد شعاراته التهكمية أثناءها «أفضل أن أكون مصيباً على أن أكون روزفلت». ترعى نقابة الصحف الأمريكية جائزة سنوية باسمه تمنحها للصحفيين الذين يقدمون أعمالاً متميزة وخصوصا تلك التي تساعد على مكافحة الظلم. نشر العديد من الكتب والقصص والمقالات المجموعة. من أقواله الساخرة: سرعة البديهة هي الأقوال التي تتمنى لو إنك قلتها في حينها.

(2) Gawaine le Cœur-Hardy جاوين في الأصل اسم أحد أبطال أسطورة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة، وغريمُ أشهرِهم السير «لانسيلوت» ويقال إنه حارب فارساً أخضر غامضاً. ومعنى «Cœur-Hardy» هو القلب الشجاع.

(3) المثاقفة "jousting" ضرب من الرياضة العنيفة كان شائعا في القرون الوسطى يتنازل فيها فارسان مدججان بالسلاح والدروع يندفع كل منهما نحو خصمه محاولا إسقاطه عن جواده بالرسح الذي يحمله.

يخبرونـه إن رؤوس الرمـاح ملفوفـة بالقـماش وإن الخيـول ليسـت أكثـر مـن بونيـات[1] كان «جاويـن» يرفـض أن يتحمـس.

في إحـدى الأمسيات الربيعيـة كان مديـر المعهـد والأسـتاذ المسـاعد لشـؤون الترفيـه يناقشـان هـذه الحالـة. وكان الأسـتاذ المسـاعد لا يـرى حـلاً سـوى الطـرد.

-«كلا» قـال المديـر وهـو يتأمـل التـلال الأرجوانيـة التـي تحيـط بالمعهـد «أعتقـد أننـي سـأدربه عـلى قتـل التنائـن»

-«لكنه قد يموت» اعترض الأستاذ المساعد.

-«هـذا أمـر وارد» أجـاب المديـر وقـد أشرقـت أسـاريره، لكنـه أردف في رزانـة «علينـا أن نفكـر بالمنفعـة الأعظـم، فنحـن مسـؤولون عـن تكويـن شـخصية هـذا الولـد»

-«وهـل تنائـن هـذا العـام شرسـة أكثـر مـن المعتـاد؟» قاطعـه الأسـتاذ المسـاعد. كان هـذا جزءً مـن طبعـه، فقـد كان يشـعر بالضجـر حـين يـشرع المديـر بالحديـث عـن الأخـلاق وعـن مُثُـل المعهـد.

-«أسـوأ مـن أي وقـتٍ مـضى» أجـاب المديـر «هنـاك عنـد التـلال قتلـتْ عـددا مـن الفلاحـين وبقرتـين وخنزيـراً، وإذا مـا استمرت موجة الحـر هـذه فمـن يعلـم متـى تشـعل النـار في الغابـة بنفخـة طائشـة مـن منخريهـا»

-«وهـل سـيتحمل المعهـد أيـة تبعـات ماليـة إذا تعـرض الفتـى «كـور هـاردي» الى حـادثٍ مـا؟»

-«كلا» أجـاب المديـر بحصافـة «العقـد الموقّـع يغطـي كل هـذه الأمـور لكنـه -في الحقيقـة- لـن يمـوت، لأننـي سـأجهزه بكلمـة

(1) Pony فصيلة من الخيول الصغيرة الأحجام القصيرة القوائم.

سحرية قبل أن أرسله الى التلال»

-»هذه فكرة جيدة» قال الأستاذ «إنها تفعل الأعاجيب أحياناً»

ومنذ ذلك اليوم تخصص جاوين بالتنائن. وكان منهاجه الدراسي يتضمن دروساً عملية ونظرية. فكان يتلقى في الصباح محاضراتٍ مطولةً عن تاريخ التنائن وتشريحها وعاداتها وتقاليدها. لم يكن «جاوين» متفوقاً في هذه الدراسات، فقد كان يملك موهبة عظيمة ورائعة في نسيان الأشياء. لكنه كان يكشف بعد الظهر عن ميزة أفضل، إذ ينزل عندها الى المرج الجنوبي ويتمرن بفأسِ الحرب. ولقد كان في تمرينه هذا مثيراً للإعجاب حقاً. فقد كان في غاية السرعة والقوة والمهارة حتى إنه طوّر استعراضاً ماكراً في استخدام القوة. يقول الخريجون القدامى إنهم كانوا يشعرون بالإثارة وهم يراقبون «جاوين» إذ يقتحم الميدان نحو دمية التنين الورقية التي نصبت لتدريبه. كان يندفع راكضاً وهو يلوّح بفأسه ويصيح «فليصبك الطاعون!» أو غيرها من العبارات المتداولة في حرم المعهد. ولم يكن الأمر ليحتاج إلا الى ضربة واحدة ليطيح برأس التنين الدمية.

كانت مهمته تُزاد صعوبة بالتدريج؛ فقد استُبدِل الورق بنشارة الخشب المضغوطة وأخيراً بالخشب نفسه، لكن أصلب تلك الدمى لم تكن لتثير الخوف في نفس جاوين، إذ كانت ضربة واحدة تفي بالغرض على الدوام. صحيحٌ أن البعض ادعى أنه لم يكن يندفع بالتهور نفسه أو يرفع صوته بالقدر نفسه عندما كان تمرينه يطول حتى يحل الغسق وتلقي التنائن ظلالها الطويلة على أرض المرج،

لكن هذه التهمة ربما شابها شيء من الخبث. على أية حال، قرر المدير مع نهاية شهر حزيران أن الوقت قد حان لإجراء الاختبار، ففي الليلة السابقة اقترب أحد التنائن من باحة المعهد وأكل عددا من رؤوس الخس من الحديقة. فارتأت إدارة المعهد أن جاوين أصبح مستعداً فمنحته شهادة دبلوم وفأساً جديدة واستدعاه المدير الى اجتماعٍ خاص.

-»اجلس» قال المدير «خذ سيجارة» وتردد جاوين.

-»أعرف أن هذا مخالف للوائح» قال المدير «لكنك نلت شهادتك الأولية ولم تعد صبيا. أنت رجل، وغدا ستخرج الى عالم الأفعال العظيمة»

تناول جاوين سيجارة وقدم له المدير علبة ثقاب لكنه أخرج علبته وشرع ينفذ الدخان بمهارةٍ أدهشت المدير.

-»لقد تعلمت هنا نظريات الحياة» قال المدير واصلاً خيط أفكاره «لكن الحياة على أية حال ليست نظريات فقط، الحياة حقائق، وهي تطالب الكبير والصغير على السواء بأن يواجه هذه الحقائق حتى لو كانت قاسية أو مرة أحياناً. مشكلتك، على سبيل المثال، هي ذبح التنائن»

- «يقولون أن التنائن في الغابة الجنوبية تبلغ الخمسمائة قدما طولاً» غامر جاوين بالقول وهو يشعر بالهلع.

- «هراء وأكاذيب!» قال المدير «لقد رأى مساعد الخوري واحداً منها من قمة تل آرثر. كان التنين يتشمس في الوادي. لم يتح لمساعد الخوري أن يطيل النظر إليه لأنه أحس بأن من واجبه أن

يسرع بالعودة ويقدم لي تقريراً بالأمر، لكنه قال إن الوحش، أو لنقل السحلية الكبيرة، لم تزد إنجاً واحداً عن المائتي قدم. غير أن الأمر لا يتعلق بالحجم. بل إنك ستكتشف أن التنائن الكبيرة أسهل من تلك الصغيرة، فهي أبطأ وأقل عدوانية كما قيل لي. أضف لذلك أنني سأقوم بتجهيزك قبل ذهابك بطريقة لا تحتاج معها الى الخوف من أي تنين في العالم»

-»أرغب في طاقية مسحورة» قال جاوين.

-»وما ذاك؟» أجاب المدير منزعجاً.

-»طاقية إخفاء» أوضح جاوين.

أطلق المدير ضحكة متسامحة وقال:

-»عليك ألا تصدق قصص العجائز تلك. لا يوجد شيء كهذا. قبعةٌ تجعلك خفياً، عجباً! وماذا تفعل بها؟ أنت حتى لم تظهر بعدُ. أي بني، إن في مقدورك أن تسير من هنا الى لندن دون أن يكلف أحد نفسه عناء النظر اليك. أنت لاشيء. ولن تكون أكثر خفاءً مما أنت فيه»

كان جاوين على شفا النكوص الى عادته القديمة من الأنين والبكاء، لكن المدير طمأنه.

-»لا تقلق، سأعطيكَ شيئاً أفضل بكثير من الطاقية المسحورة. سأعطيك كلمة سحرية. كل ما عليك هو أن تنطق بهذه التعويذة السحرية مرةً واحدةً ولن يقدر أي تنين أن يؤذي شعرةً واحدةً في رأسك، وسوف تستطيع قطع رأسه على راحتك»

وسحب كتاباً ثقيلاً من رفٍ خلف منضدته وشرع بتقليبه.

-»أحيانـاً» قـال المديـر «تتكـون التعويـذة مـن عبـارة كاملـة أو حتـى جملـةٍ برمتهـا. ربـما أعطيـك، عـلى سـبيل المثـال «ليتحـول الـ... لكـن لا، هـذا قـد لا ينفـع. أعتقـد أن كلمـة واحـدة سـتكون أكثـر نفعـاً مـع التنائـن»

-»كلمة قصيرة» اقترح جاوين.

-»يجـب ألا تكـونَ شـديدة القـصر وإلا لـن تكـون قويـة. هـاك. هـذه كلمـة سـحرية رائعـة: «رامبلزنتـز» هـل تظـن أنـك قـادر عـلى تعلمهـا؟»

بـذل «جاويـن» جهـده وفي خـلال سـاعة تقريبـاً بـدا عليـه أنـه تمكـن منهـا، وكان يقطـع الـدرس مـرة بعـد مـرة ليسـأل:

-»ومـاذا إذا نسـيت أن أقـول رامبلزنتـز؟ هـل يُحتمَـل أن يؤذينـي التنـين؟»

وكان المدير يجيبه كل مرة:

-»لو قلت رامبلزنتز وحسب فسوف تكون في أمان تام»

ومـع اقـتراب الصبـاح بـدا أن جاويـن تقبـل مهنتـه الجديـدة. وعندمـا انبلـج النهـار شـيعه المديـر حتـى حـدود الغابـة وأراه الجهـة التـي ينبغـي أن يمـضي فيهـا. فعـلى مسـافة ميـلٍ الى الجنـوب الغـربي كانـت غمامـة مـن البخـار تحـوم فـوق مـرج مفتـوح وسـط الغابـة وأكـد لـه المديـر أنـه سـيجد تحتهـا تنـين مـا. تقـدم جاويـن في بـطء. وتسـاءل مـع نفسـه إن كان مـن الأفضـل أن يندفـع راكضـاً كـما في التماريـن أو أن يسـير نحـوه عـلى مهـل وهـو يصيـح رامبلزنتـز طـوال الطريـق.

لكـن القـدر حـل المسـألة نيابـة عنـه. فـما أن دنـا مـن حافـة المـرج

حتى أبصره التنين وبادر الى التقدم نحوه. كان تنيناً ضخماً لكنه شرس للغاية على عكس ما قاله المدير. كان يتقدم وينفث من منخريه سحائب ضخمة من بخار ذي هسيسٍ مخيف فبدا مثل إبريق شايٍ عملاق أصيب بنوبة من الجنون.

كان التنين يقترب بسرعة عظيمة وكان خوف جاوين عظيماً هو الأخر فلم يملك من الوقت إلا ليقول رامبلزنتز مرة واحدة فقط لوح معها بفأسه وهوى على رقبة التنين فتدحرج رأسه على الأرض.

اضطر جاوين الى الاعتراف بأن قتل التنين الحقيقي أسهل بكثير من التنين الخشبي لو أنه نطق فقط بكلمة رامبلزنتز، وعندما عاد الى المعهد حاملاً أذني التنين وقطعة صغيرة من ذيله قابله زملاؤه ومدرسوه بالحفاوة والتبجيل، لكن المدير رأى بحكمته أن يبعده عن الدلال وذلك بأن يصر على أن يمضي في عمله. في كل يوم، وعندما يكون الجو صاحياً، كان جاوين يستيقظ عند الفجر ويخرج ليقتل التنائن. أما في الأيام الماطرة فكان المدير يبقيه في الداخل ويفسر ذلك بأن الغابات تكون رطبة ومضرة بالصحة في تلك الأجواء وبأنه لا يريد أن يعرّض الولد الى مخاطر إضافية لا داعي لها. قليلة هي الأيام الصاحية التي لم ينجح فيها جاوين في اقتناص تنين، لكن الحظ حالفه مرة بشكل غير معتاد فاقتنص ثلاثة منها في يوم واحد: زوجاً وزوجة وقريبا كان يزوهما. وأخذ جاوين يطور شيئاً فشيئاً تكنيكه الخاص. فقد قال التلاميذ الذين كانوا يراقبونه أحياناً من مسافة بعيدة فوق قمة التل أنه كان في

مـرات كثـيرة يسـمح للتنـين بالاقـتراب الى مسـافة بضعـة أقـدام قبـل أن يقـول رامبلزنتـز. ثـم إنـه صـار يلفظهـا بنـبرة سـاحرة أو يعمـد الى اسـتعراض براعتـه؛ ففـي ذات مـرة، وعندمـا كان المشـاركون في سـفرةٍ مدرسـية قادمـة مـن لنـدن يراقبـون عملـه، أقـدم عـلى منازلـة التنـين وقـد شـد ذراعـه اليمنـى خلـف ظهـره، لكـن رأس المسـكين طـار بنفـس السـهولة المعتـادة.

كان المديـر يجـد صعوبـة متعاظمـة في التحكـم بالفتـى كلـما تعاظـم سـجله في قتـل التنائـن. فقـد صـار معتـاداً عـلى الانسـلال في الليـل والانهـماك في حفـلات سـكر طويلـة في حانـة القريـة. وقـد حـدث في صبـاح صيفـي رائـع بعـد واحـدة مـن جلسـات العربـدة هـذه أن نهـض قبيـل الفجـر وخـرج باحثـاً عـن تنينـه الخمسـين. كان جسـده ثقيـلاً وعقلـه مشوشـاً غـير أنـه كان ثقيـلاً في مجـال آخـر أيضـاً، فقـد تبنـى العـادة الفظـة بعـض الـشيء المتمثلـة بحمـل كل نياشـينه وأشرطتـه ومـا الى ذلـك عندمـا يخـرج في أثـر التنائـن. كانـت الأوسـمة تبـدأ مـن أعـلى صـدره وتنـزل حتـى بطنـه، فـكان وزنهـا ثمانيـة أرطـال عـلى أقـل قديـر.

عثـر جاويـن عـلى تنـين في نفـس المـرج الـذي قتـل فيـه تنينـاً أول مـرة. كان متوسـط الحجـم لكنـه طاعـن في السـن كـما ظهـر مـن وجهـه المجعـد الـذي جعلـه يجـزم بأنـه لم يـر مثيـلاً لـه في البشـاعة. وممـا زاد في اشـمئزاز الصبـي أن التنـين رفـض التقـدم فاضطـر جاويـن الى أن يسـير نحـوه. كان يصفـر بفمـه وهـو يقـترب، ونظـر اليـه التنـين في يـأسٍ مشـوب بالمكـر. لقـد سـمع طبعـاً بأخبـار جاويـن فلـم يحـرك سـاكناً حتـى عندمـا رفـع الصبـي فأسـه ليقينـه بـأن لا خـلاص لـه

حتى لو اندفع مهاجماً بكل سرعته، فقد أخبروه أن هذا الصياد محروسٌ بتعويذةٍ سحرية فاكتفى بالانتظار، آملاً أن يحدث شيء ما يقلب الأمور. رفع جاوين فأسه وفجأةً أنزلها ثانية وهو يختض من الخوف وقد شحب وجهه تماماً. شكَّ التنين بوجود خدعة ما.

-»ما الأمر؟» سأل في قلقٍ كاذب.

-»نسيتُ الكلمة السحرية» تمتم جاوين.

-»يا للأسف» قال التنين «هذا هو السر إذن. أنت تدري، كل تلك السخافات السحرية تبدو لي بعيدة عن العدالة. ليس فيها روح رياضية كما اعتدنا على القول عندما كنت تنينا صغيراً. ولكن، وعلى كل حال، هذه مسألة وجهات نظر»

كان الخوف قد شل جاوين فارتفعت ثقة التنين بنفسه الى درجة عظيمة حتى لم يعد قادراً على مقاومة ما يغريه باستعراض بعض مواهبه.

-»هل يمكنني أن أفيدك بشيء؟» سأل التنين «ما هو الحرف الأول من الكلمة السحرية؟»

-»إنها تبدأ بالراء» أجاب جاوين في وهن.

-»دعنا نفكر» قال التنين «هذه المعلومة لا تفيدنا كثيراً، أليس كذلك؟ أي نوع من الكلمات هي، هل هي لقب؟ ماذا تقول؟»

لم يستطع جاوين إلا أن يومئ برأسه.

-»آه، طبعاً» صاح التنين «أهيَ: رجعي من أنصار الحزب الجمهوري؟»

هز جاوين رأسه نافياً.

-»حسنا إذن. من الأفضل أن نبدأ بالعمل. هل تستسلم؟»

شجع اقتراح التسوية هذا جاوين على أن يستجمع ما يكفي من شجاعته ليسأل:

-»وماذا ستفعل إذا استسلمتُ؟»

-»سآكلك بالطبع»

-»وإذا لم أستسلم؟»

-»سآكلك أيضاً»

-»لا فرق بالنسبة لي إذن، أليس كذلك؟» تأوه جاوين.

-»لكن هناك فرق بالنسبة لي» قال التنين مبتسماً «أنا أفضل ألاّ تستسلم »

انتظر التنين طويلاً حتى يسأل جاوين عن السبب، لكن الصبي كان أكثر خوفاً من أن ينطق بشيء، فاضطر التنين الى يعطي تفسيراً دون أن ينتظر دوره في المهزلة:

-»أنت تدري» قال التنين «إن لم تستسلم سيكون طعمك ألذ لأنك ستموت مفتَرساً»

كانت هذه إحدى حيل التنين القديمة المعروفة. فقد اعتاد عن طريق مثل هذه المراوغات أن يشل ضحاياه بالضحك ثم يقضي عليهم. لكن جاوين كان مشلولاً دون حاجة الى الضحك. ومع آخر كلمة من النكتة رجع التنين برأسه الى الخلف ثم انقض مهاجماً. في تلك الثانية أبرقت الكلمة السحرية في ذهن «جاوين» لكنه لم يملك الوقت كي ينطقها. كان لديه فقط وقتاً ليضرب بفأسه دون كلام فقابل اندفاع التنين بضربة قاصمة وضع فيها كل ما في ظهره

وكتفيه من قوة. وكانت النتيجة رهيبة، فقد طار رأس التنين مائة ياردة تقريباً ثم حط على إحدى الأجمات.

زال خوف «جاوين» بعد موت التنين. لكنه كان في حالة من الذهول. كان شديد الحيرة والارتباك. فقطع أذني التنين دون أن يشعر تقريباً. وظل يفكر مرة بعد مرة «لم أنطق كلمة رامبلزنتز» كان متأكداً من ذلك ولكنه قتل التنين دون أدنى شك. بل إنه في الحقيقة لم يقتل واحداً بمثل هذه الشدة. ولم يسبق له أن أطار رأساً الى هذه المسافة. كان أفضل رقم سجله قبل ذلك هو خمس وعشرون ياردة في أفضل تقدير. وظل طوال طريق العودة الى معهد الفرسان يدمدم في داخله باحثاً عن تفسيرٍ لما حدث.

توجه من فوره الى مكتب المدير. وبعد أن أغلق الباب أخبر المدير بما حدث:

-»لم أقل رامبلزنتز» شرح للمدير بكل جد. فضحك المدير وقال:

-»أنا سعيد لأنك اكتشفت ذلك. هذا ما يجعلك أكثر بطولةً. ألا ترى ذلك؟ ها إنك تعرف الآن أن من قتل كل تلك التنائن هو أنت، لا كلمة رامبلزنتز التافهة الحمقاء»

تجهم وجه جاوين وسأل مديرَه:

-»لم تكن تلك كلمة سحرية إذن؟»

-»كلا بالطبع» أجاب المدير «يجب أن تكون أنضج من هذه السخافات. لا يوجد شيء اسمه كلمة سحرية»

-»لكنك أخبرتني أنها سحرية» احتج جاوين «لقد أخبرتني

أنها سحرية. وتقول الآن إنها ليست كذلك»

-»لم تكن سحرية بالمعنى الحرفي» أجاب المدير «لكنها كانت أروعَ من ذلك بكثير؛ فقد منحَتك الكلمةُ الثقة بالنفس، وأزالت عنك كل مخاوفك. لو لم أخبرك بذلك لمتَّ من أول مرة. لقد كان الفضل لفأسك في إنجازاتك الرائعة»

أثار موقف «جاوين» حيرة المدير. لقد كان واضحاً ما أدخله هذا التفسير من اضطراب على نفسه، إذ ظل يقاطع حديث المدير الفلسفي والأخلاقي قائلاً:

-»لو لم أكن ضربتهم بقوة وسرعة هائلتين لكان أي واحد منهم قد سحقني مثل، مثل ....» وتلعثم باحثاً عن الكلمة المناسبة.

-»قشرة بيضة» اقترح المدير.

-»مثل قشرة بيضة» أكد جاوين وكررها عدة مرات. وظل الطلبة الذين جلسوا قربه خلال العشاء يسمعونه وهو يدمدم «مثل قشرة بيضة، مثل قشرة بيضة»

كان اليوم الثاني صحواً، لكن جاوين لم يستيقظ عند الفجر. بل إن الوقت كان قد شارف الظهر عندما وجده المدير منكمشاً في فراشه وقد تغطى حتى رأسه، فاستدعى المدير الأستاذ المساعد لشؤون الترفيه وجرجراه سوية حتى الغابة.

-»سيكون على ما يرام ما أن يضع زوجاً آخر من التنانين تحت حزامه» شرح المدير. فوافقه الأستاذ المساعد لشؤون الترفيه:

-»سيكون من العار إيقاف هذه السلسلة الرائعة من

النجاحـــات»

-»بالتأكيـد. لـو حسـبنا تنـين البارحـة سـيكون قـد قتـل خمسـيناً منهـا»

ودفعـا الصبـي نحـو أجمـة تعلقـت فوقهـا غيمـة نحيلـة مـن البخار. كان تنينـا صغـيراً كـما هـو واضـح، لكـن جاويـن لم يعـد في تلـك الليلـة ولا في الليلـة التاليـة. وبعـد عـدة أسـابيع أقـدم بعـض شـجعان المعهـد عـلى تفتيـش الأجمـة لكنهـم لم يعثـروا عـلى مـا يذكرهـم بـــجاوين غـير الأجــزاء المعدنيـــة مـــن أوســـمته، فلـــم تســـلم حتـــى الأشرطـــة مـــن الالتهـام.

اتفـق المديـر مـع الأسـتاذ المسـاعد لشـؤون الترفيـه عـلى أن مـن الأفضـل ألا يخـبرا المعهـد كيـف أنجـز «جاويـن» هـذا الرقـم القيـاسي وأن لا بـأس في كتـمان الطريقـة التـي مـات بهـا. فقـد ارتأيـا أن ذلـك سـيكون لـه أثـر سـلبي عـلى معنويـات التلاميـذ. وبنـاءً عـلى ذلـك ظـل «جاويـن» يعيـش في ذاكـرة المعهـد باعتبـاره أعظـم أبطالـه. ولا يسـتطيع زائـر أن يغـادر البنايـة هـذه الأيـام دون أن يـرى الـدرع العظيـم المعلـق عـلى جـدار صالـة الطعـام. كان خمسـون زوجـاً مـن آذان التنائـن مثبتـاً عـلى الـدرع وقـد خُـط تحتـه بحـروفٍ مذهبـة «جاويـن لـو كـور هـاردي» ثـم وبخـطٍ بسـيط «قتـل خمسـين تنينـا» ولم يصـل أحـد الى هـذا الرقـم القيـاسي.

رجلان في القرية
زادي سمث[1]

أحيانـاً عـلى ظهـور الخيـل، أحيانـاً أخـرى مشـيا عـلى الأقـدام أو في سـيارة أو عـلى ظهـر دراجـات بخاريـة. أحيانـاً قليلـة في دبابـة ابتعـدت عـن خـط الكتيبـة الرئيسـية. وفي فـترات متباعـدة مـن الأعـلى، بواسـطة المروحيـات. لكـن لـو نظرنـا للصـورة عـلى أوسـع نطـاقٍ ممكـن، ولأطـول فـترة نسـتطيعها، سـيكون علينـا الاعـتراف بأنهـم اعتـادوا في الغالـب عـلى المجـيء مشـياً عـلى الأقـدام. وهكـذا، بهـذا المعنـى عـلى الأقـل، يصـح أن نعـد مثالنـا نموذجيـاً؛ بـل إنـه ليتمتـع، في الحـق، بكـمال المثـل المـضروب: رجـلان يصـلان الى قريـة مشـياً عـلى الأقـدام، دائـماً الى قريـة، لا الى مدينـة. لـو أن رجلـين وصـلا الى مدينـة لـكان لزامـاً أن يصـلا بصحبـة عـدد أكـبر مـن الرجـال وعـلى هيئـة تعزيـزات في الأغلـب –هـذه بديهيـة بسـيطة. لكـن حـين يصـل رجـلان فقـط الى قريـة فـإن مـا يحملانـه مـن معـدات لـن يزيـد عـادة عـلى أيديهـم السـمر أو البيـض، اعتـماداً عـلى مقتـضى الحـال، رغـم أنهـم

---

(1) زادي سـمث Zadie Smith: روائيـة وقاصـة وكاتبـة مقـالات إنكليزيـة. ولـدت في لنـدن عـام 1975 مـن أم جامايكيـة وأب إنكليـزي. نـشرت أربـع روايـات نالـت كلهـا استحسـانا واسـتقبالا كبيريـن. في عـام 2003 وضـع اسـمها في قائمـة "غرانتـا" لأفضـل المؤلفـين الشـباب كـما نالـت عـام 2006 " الجائـزة البرتقاليـة للقصـة" وجـاءت روايتهـا "الأسـنان البيـض ضمـن قائمـة مجلـة "تايـم" لأفضـل مائـة روايـة انكليزيـة مـا بـين 2005-1923 مـن أعمالهـا الروائيـة "الأسـنان البيـض-2000" . "رجـل الأوتوغـراف-2002" ؛ "عـن الجـمال-2006".

يحملون في هذه الأيدي، في أغلب الأحوال، شفرةً من نوعٍ ما، رمحاً، أو سيفاً طويلاً، أو خنجراً، أو مطواة، أو ساطوراً، أو مجرد موسين قديمَين صدئين ومسدساً في بعض الأحيان. كان الأمر وما يزال يعتمد على مقتضى الحال. لكن ما يمكننا قوله بشكل مؤكد هو أننا نشخص هذين الرجلين فور اقترابهما من القرية، في تلك النقطة من الأفق حيث يلتقي الطريق الطويل المؤدي الى القرية التالية بالشمس الآيلة للمغيب. ولقد فهمنا مغزى مجيئهما في هذا الوقت. غروب الشمس كان، تاريخياً، وقتاً ممتازا للرجلين، أينما وصلا، لأننا في ساعة الغروب لمّا نزل، جميعنا، معاً: النساء عُدن للتو من الصحراء، أو من الحقول، أو من مكاتب المدينة، أو من الجبال المثلجة، والأطفال يلعبون في التراب قرب الدجاج أو في الحديقة العامة خارج العمارات السكنية، الأولاد يضطجعون في ظل أشجار الكازو هاربين من الحر الخانق -إن لم يكونوا في بلد بعيد أكثر برداً، يخطّون العلامات تحت جسر قطار ما- أما البنات المراهقات، وهذا قد يكون الأهم، فهن في الخارج أمام أكواخهن أو بيوتهن وقد لبسن سراويل الجينز أو ثياب الساري أو الحجابات أو تنورات الميني وأخذن ينظفن أو يحضرن الطعام أو يقطّعن اللحم أو يكتبن الرسائل في هواتفهن المحمولة. حسب مقتضى الحال. والرجال القادرون جسدياً لم يعودوا بعد من حيثما كانوا.

الليل أيضاً له مزاياه، فلا يستطيع أحد إنكار أن رجلين يصلان في منتصف الليل على ظهور الخيل، أو حافيين، أو متشبثين واحدهما بالآخر على دراجة سوزوكي بخارية، أو جالسين على سطح سيارة

جيب حكومية مصادرة، سوف يستفيدان من عنصر المفاجأة. لكن الظلام له مساوئه أيضاً، فلأن الرجلان يصلان دائماً الى قرية، لا الى مدينة، فسوف يقابَلان في الأعم الأغلب بالظلام الدامس إن وصلا ليلاً، بغض النظر عن مكان وتاريخ التقائك بهما. وفي ظلمة كهذه لن تكون متأكداً تماماً من الساق التي ستظفر بها: عجوز شمطاء، أو امرأة متزوجة، أو فتاة في ريعان شابها.

لا حاجة بنا الى أن نقول بأن أحدهما طويل القامة ووسيم الى حد ما -بطريقة سوقية- وعلى قدر من البلادة والفظاظة، في حين أن الثاني أقصر قامة، يتسم بالدهاء، وذو وجه شبيه بابن عرس. هذا الرجل الماكر اتكأ على لوحة إعلان الكوكاكولا الكبيرة الي تشير الى مدخل القرية ورفع يداً بطريقة محيية ودودة، بينما أخرج رفيقه من فمه العود الذي كان يمضغه حتى تلك اللحظة ورماه أرضاً ورسم ابتسامةً على وجهه. أو لربما كانا يتكئان على عمود للنور ويمضغان اللبان بينما تفوح رائحة حساء البنجر في الهواء، لكننا، في قريتنا، لا نطبخ حساء البنجر -نحن نأكل الكسكس مع سمك التلفيش وتلك هي الرائحة التي تفوح في الجو، سمك التلفيش الذي نتحمل بالكاد رائحته لأنه يذكرنا باليوم الذي حلَّ فيه الرجلان على القرية.

رفع الطويل إذن يده بطريقة ودية، في اللحظة التي شعرت ابنة عم زوجة كبير القرية -التي صادف مرورها في الطريق الطويل المؤدي الى القرية المجاورة- بأن لا خيار لديها سوى التوقف قبالة الرجل الطويل، بساطوره اللامع تحت الشمس، ورفعِ يدِها، رغم

أن ذراعها بأكمله كان يهتز وهي تفعل ذلك.

يحب الرجلان أن يصلا بهذه الطريقة، بطريقة ودية بهذا القدر أو ذاك، وهذا ما يذكّرنا بحقيقة أن كل البشر، بغض النظر عمّا يفعلونه، يحبون أن يُحَبّوا، حتى ولو لساعة واحدة، قبل أن يُخافوا أو يُبغَضوا –أو لربما كان من الأفضل القول بأنهم يحبون أن يعجنوا الخوف الذي يثيرونه بأشياء أخرى كالرغبة والفضول، حتى لو كان الخوف، في التحليل النهائي، هو على الدوام الجزء الأعظم مما يريدون. يُطبَخُ لهم الطعام. نعرض عليهم ذلك وإلا طلبوه، حسب مقتضى الحال. في أوقات أخرى، في الطابق الرابع عشر من عمارة سكنية بائسة يغطيها الثلج –حيث تعيش القرية بصورة عمودية– سوف يغطس الرجلان في أريكة العائلة، أمام تلفازهم، ويتفرجون على بث الحكومة الجديدة، الحكومة التي أعلنت قبيل أيام بانقلاب عسكري، وسيضحك الرجلان على قائدهما الجديد وهو يروح ويجيء في ساحة العرض معتمراً تلك القبعة الغبية، ويمسكون وهم يضحكون كتف البنت الكبرى، التي تتفرج على التلفاز، بطريقة يفترض بأنها رفاقية ولكن بقليل من الضغط الزائد، بينما تشرع بالبكاء. («ألسنا أصدقاء؟» سيسألها الرجل الطويل البليد «ألسنا جميعاً هنا أصدقاء؟»)

هذه إحدى طرق وصولهم، رغم أنهم لم يصلوا الى هنا بهذه الطريقة، فنحن لا نملك تلفازاً ولا ثلجاً ولم نعش قط أعلى من مستوى الأرض. لكن التأثير هو نفسه رغم هذا: السكون نفسه والحدس المنذر نفسه. جلبت فتاة أخرى أصغر عمراً أطباق

الطعام للرجلين، أو، كما جرت العادة في قريتنا، الوعاء الوحيد. «هذا خراء جيد!» قال الطويل الغبي الوسيم وهو يغرف السمك بأصابعه المتسخة، فيعلق القصير الماكر ذو الوجه الشبيه بابن عرس «آه، هكذا كانت تطبخه أمي، رحم الله روحها الخرائية الصغيرة!» وبينما يأكلان يدفعان في كل مرة إحدى الفتيات الى حضنيهما بينما تلتصق النسوة الأكبر عمراً بجدران المنزل وهن ينتحبن.

بعد الأكل والشرب -إن كانت قرية يسمح فيها بالشرب- يشرع الرجلان بجولة في المكان كي يشاهدا ما يستحق المشاهدة. هذا وقت السرقة. الرجلان يسرقان الأشياء دائماً، رغم أنهما، لسبب ما، لا يستخدمان هذه اللفظة، وبينما يمدان أيديهما الى ساعتك أو سجائرك أو هاتفك أو ابنتك سيقول الرجل القصير، على وجه التحديد، أموراً تتسم بالوقار مثل «شكراً على هديتك» أو «نحن نقدر تضحيتك من أجل القضية» رغم أن الطويل ينفجر بالضحك مفسداً كل أثر مهيب يحاول القصير إحداثه.

في نقطة معينة، بينما يتنقلان من منزل لآخر ويستوليان على كل ما يريدان، سيقفز صبي شجاع من وراء تنورة أمه ويحاول أن يغلب الرجل الماكر القصير. في قريتنا كان هذا صبياً عمره أربعة عشر عاماً اعتدنا جميعا على تسميته «ملك الضفادع» لأنه سُئِل ذات مرة، عندما كان في الرابعة أو الخامسة عن أقوى شخص في قريتنا فأشار الى ذكر ضفدع كبير دميم في الساحة وقال «هو، ملك الضفادع» وحين سألوه عن السبب قال «لأن أبي نفسه يخاف منه!» بالنسبة لعمر الرابعة عشرة كان ولداً شجاعاً لكنه متهور، وهذا

ما دفع أمه العريضة الحوض الى التفكير في دسّه خلف تنورتها كما لو انه طفل رضيع، لكن ثمة أشياء حقيقية، ثابتة، عصية على التفسير -مثل الشجاعة الجسدية- لا تكف عن التواجد في جيوب صغيرة هنا وهناك وفي كل مكان، وتظل، رغم لا جدواها في الأعم الأغلب، أموراً لا يمكنك نسيانها بعد رؤيتها -مثل وجه جميل أو سلسلة جبلية عملاقة، فهي ترسم حدودا بطريقة ما على آمالك الشخصية- ربما أحس الرجل الأبله الطويل بذلك فرفع ساطوره اللامع، وبنفس الطريقة الرشيقة غير المجهدة التي تقطع بها رأس وردة ما، فصل بين الفتى والحياة.

ما أن تسيل الدماء، خصوصاً بهذه الغزارة، حتى يتنزل ضرب من الوحشية الجامحة، فوضى دموية تذوب فيها على الفور كل إيماءات الترحيب والطعام والتهديد. عند هذه النقطة تستهلك في العادة مقادير أكبر من الكحول. والغريب في الأمر أن الرجال الأكبر سناً في القرية -الذين لا يملكون حولاً ولا قوة رغم كونهم رجالا- سيمسكون القناني ويشربون بعمق وهم ينتحبون، ذلك لأنك لا تحتاج الشجاعة كي تثير فوضى دموية فقط، بل لكي تجلس وتتفرج عليها. لكن النساء! كم نفخر، ونحن نستعيد الأحداث، بنسائنا اللاتي وقفن صفاً وقد شبكن أذرعهن في حلقة محكمة حول بناتنا، بينما يستشيط الرجل الأبله الطويل ويبصق على الأرض:

«ما خطب هؤلاء العاهرات؟ لقد انتهى الانتظار. سأكون غارقاً في السكر إن طال الوقت!»

ولطم القصير الماكر وجه ابنة عم زوجة كبير القرية (زوجة كبير القرية التي كانت في زيارة عائلية الى القرية المجاورة) وتكلم بنبرةٍ خفيضة متآمرة عن أطفال الثورة القادمين. إننا ندرك بأن النسوة طالما وقفن هكذا في غابر العصور، جوار حجارة بيض أو بحار زرق، وفي عصور لاحقةٍ في قرى الفيل الإله وفي أماكن أخرى كثيرة، قديمة وحديثة. رغم هذا كان هناك أمر يحرك المشاعر فيما يخص الشجاعة الحمقاء لنسوتنا في تلك اللحظة، رغم أنها لم تنجح في منع رجلين من النزول في قرية وفعل أسوأ ما بجعبتهما -لم يسبق أن نجحت ولن تنجح- ورغم هذا جاءت تلك اللحظة الوجيزة عندما بدا الرجل الطويل البليد خائفاً ومتردداً، كما لو أن المرأة التي تبصق عليه الآن ليست سوى أمه، تلك لحظة مرت سريعاً عندما ركل القصير الماكر المرأة التي بصقت في خاصرتها، وتفككت الحلقة وسلكت الفوضى الدموية طريقها المعتاد دون مزيد من عوائق.

حكاية ما جرى سيعاد سردها في اليوم التالي في نسخ مجزأة متقطعة تتباين، حسب مقتضى الحال، اعتماداً على السائل: جندي، امرأة تحمل لوح كتابة، زائر يقتله الفضول من القرية المجاورة، أو زوجة كبير القرية العائدة من زيارتها لامرأة أخيها. سيركز أغلبهم بقوة على أسئلة بعينها:

«من هما؟»، «من كان هذان الرجلان؟»، «ما اسمهما؟»، «بأية لغة تحدثا؟»، «ما العلامات الفارقة على يديهما ووجهيهما؟»

لكننا في قريتنا محظوظون لأننا لا نملك بيروقراطيين صارمين

بل زوجة الكبير التي نعدّها، قولاً وفعلاً، كبيرة قرية أكثر من الكبير نفسه. إنها مليحة، فارعة الطول، شجاعة وذات دهاء. إنها تؤمن بـ «كاها هاراماتا» تلك الريح التي تهب هنا ساخنة، وهناك باردة، حسب مقتضى الحال، والتي يتنفسها الجميع –لا يملك المرء إلا إدخالها لصدره، رغم أن القلائل هم من يخرجونها في فوضى دامية. أولئك الأشخاص يغدون بالنسبة لها مجرد «كاها هاراماتا». إنهم يخسرون أنفسهم وأسماءهم ووجوههم، ولن يعود بمقدورهم أن يدعّوا القدرة على استجلاب الزوابع، فهم أنفسهم تلكم الزوبعة. هذا بالطبع مجرد وصف مجازي. لكنها تعيش به. إنها تتوجه فوراً نحو الفتيات وتسألهن عن روايتهن وتجد واحدة تروي لها، متشجعة بأسلوبها المتعاطف، الحكاية بأكملها، تلك الحكاية التي تنتهي بأغرب صورة؛ إذ أن الرجل القصير الماكر تمادى فتوهم بأنه عاشق، ولهذا، بعد أن أراح رأسه العرقان على الصدر العاري لهذه الفتاة، أخذ يروي لها كيف أنه كان، هو الآخر، طفلاً يتيما، رغم أن الأمر أكثر قسوة عليه لأنه يتيم منذ سنوات عديدة وليس مجرد ساعات، وبأنه كان يملك اسماً وحياة ولم يكن مجرد وحش بل صبياً عانى كما عانى كل الرجال، وبأنه قد رأى أهوالاً ولا يريد الآن إلا أن ينجب أطفالاً من هذه الفتاة من قريتنا، العديد من الأطفال الذكور، الأقوياء الحلوين، وبناتاً أيضاً، نعم، ولم لا، فتيات! وأن يعيش بعيداً عن كل القرى والمدن مع هذا الجيش من الأطفال الذي يحيط بهما ويحميهما طوال العمر.

- «أراد مني أن أعرف اسمه!» هتفت الفتاة التي ما زالت

مندهشة من الفكرة «يا له من عديم الحياء! لقد أخبرني أنه لا يريد التفكير بأنه مرَّ من خلال القرية، ومن خلال جسدي، دون أن يُعنى أحد باسمه. ربما لم يكن اسمه الحقيقي لكنه قال إن اسمه

بيد أن زوجة الكبير انتصبت واقفة على نحو مفاجئ وغادرت الغرفة ومشت نحو الساحة!

الفَراش والنجمة
جيمز ثيربر[1]

يحكـى أن فَراشـاً يافعـاً مرهـف الحـس تعلـق يومـاً بإحـدى النجـمات. وعندمـا أخـبر أمـه بذلـك نصحتـه بـأن مـن الأفضـل لـه أن يتعلـق بمصبـاح الشـارع:

«النجـوم ليسـت أشـياءً يمكـن التسـكع حولهـا» قالـت لـه، وأضافـت «المصابيـح هـي مـا يسـتحق أن تحـوم حولهـا» وأردف أبـوه «إن فعلـت هـذا فسـوف تتقـدم في حياتـك. لكنـك لـن تفـوز بـشيء إذا طـاردتَ النجـومَ»

غـير أن الفـراش لم يعـر اهتمامـاً لكلـمات أي مـن والديـه. كان في كل مسـاءٍ، ومـا أن يحـل الغسـق وتبـدأ النجـوم بالظهـور، يـشرع بالطـيران صوبهـا ليعـود الى البيـت زاحفـاً في الصبـاح وقـد انهكـت مغامرتـه الفاشـلة قـواه. في أحـد الأيـام قـال لـه أبـوه «أنـت لم تحـرق جناحـا واحـدا مـن أجنحتـك طـوال أشـهر، وأظنـك لـن تفعـل يـا فتـى. كل أشـقائك أصيبـوا بحـروق بليغـة وهـم يحومـون حـول مصابيـح الشـارع

(1) جيمـز ثيربـر James Thurber (1894-1961) مؤلـف، رسـام كاريكاتـوري، كاتـب فكاهـي، صحفـي، وكاتـب مسرحـي أمريكـي ذائـع الصيـت. نـشر الكثـير مـن أعمالـه في مجلـة «النيويوركـر» وجمعهـا في العديـد مـن كتبـه. كان واحـداً مـن ألمـع الكتـاب السـاخرين في زمانـه، حيـث ركـز عـلى تصويـر حـالات الإحبـاط وخيبـات الأمـل وغرابـة الأطـوار لـدى النـاس العاديـين. كتـب -بالتعـاون مـع إليـوت ناجـت- المسرحيـة الكوميديـة الشـهيرة (الحيـوان الذكـري) التـي عرضـت في مسـارح بـرودواي وتحولـت عـام 1942 الى فلـم سـينمائي قـام ببطولتـه هنـري فونـدا وأوليفيـا دو هافيلانـد. أمـا قصتـه القصـيرة (الحيـاة السريـة لوالـتر ميتـي) فقـد وظفـت للسـينما مرتـين (1947) و (2013)

وكل شقيقاتك سفعن أجسادهن وهن يطرن حول مصابيح المنزل. هيا، أخرج من هنا حالاً وأحصل لنفسك على سفعةٍ ما! يا للعار، فراش طويل عريض مثلك ولا أثر لحرقٍ على جسمه!»

غادر الفراش بيت أبيه، لكنه لم يطر حول مصابيح الشارع، ولم يحم حول المصابيح المنزلية، بل شرع من فوره بمحاولة بلوغ تلك النجمة، النجمة التي تبعد ثلث سنة ضوئية، أو خمسة وعشرين ترليون ميلا، لكن الفراش كان يظنها عالقة بين الأغصان العالية لشجرة الدردار. لم يبلغ أبداً تلك النجمة، لكنه واصل المحاولة، ليلةً بعد ليلة، وعندما صار فراشاً عجوزاً، عجوزاً للغاية، أخذ يؤمن بأنه قد وصل اليها بالفعل وطفق يحدث الآخرين بذلك. منحه هذا متعةً عميقة مديدة، وعاش حتى بلغ من الكبر عتياً. أما والداه وأخوته وأخواته فقد هلكوا جميعاً محترقين وهم لم يزالوا في ريعان شبابهم.

المغزى. من يطر بعيداً عن نطاق أحزاننا سيكون ها هنا، اليوم وغداً.

البوم الإله
جيمز ثيربر

في منتصف ليلة ظلماء غابت عنها النجوم كان ثمة بوم جاثماً على غصن شجرة بلوط. حاول زوج من جرذان الخلد الأرضية أن ينسلّا بهدوء دون أن يلحظهما.

-»يوو!» صاح البوم.

-»مَن؟» أجابا وهما يرتعدان من الخوف والدهشة لأنهما لم يصدقا أن في مقدور أحدٍ أيا كان أن يراهما في هذه الظلمة الحالكة.

-»يو توو!» صاح البوم من جديد[1]

أسرع الخلدان بالفرار وأخبرا بقية مخلوقات الحقل والغابة بأن البوم أعظم الحيوانات وأكثرها حكمة لأنه قادر على الرؤية في الظلام والإجابة على أي سؤال.

-»سأتحقق من الأمر» قال طائر السكرتير[2] ثم مر على البوم في ليلة شديدة الظلام كسابقتها وسأله «كم مخلباً أحمل؟»

-»توو» قال البوم، وكان مصيبا.

-»هل يمكنك أن تعطيني عبارة أخرى لقولنا (بمعنى) أو

(1)تقوم طرافة القصة على التشابه بين الأصوات الطبيعية التي يطلقها طائر البوم وبين بعض الكلمات الانكليزية. فصوت (يو) يطابق كما هو معروف كلمة (you) أي (أنت) وصوت (هوو) شبيه بلفظة (who) بمعنى (مَن) وصوت (يوتوو) يطابق عبارة (you two) بمعنى (أنتما الاثنان) وصوت (توو وِت) شبيه بتعبير (to wit) بمعنى (يعني أو بعباره أخرى) وصوت (تو وو) شبيه بتلفظ المصدر (to woo) بمعنى (أن يتودد لامرأة أو يطلب ودها)

(2) طائر أفريقي كاسر ذو ساقين كساقي الكركي وجسم يشبه الصقر.

(تحديـدا) ؟» سـأل طائـر السـكرتير.

-»تو وِت» ردد البوم.

--»ولماذا ينادي الحبيب حبيبه؟» سأل طائر السكرتير.

-»تو وو» قال البوم.

أسرع السـكرتير عائـداً الى بقيـة الحيوانـات وأخبرهـم بـأن البـوم هـو حقـاً أعظـم الحيوانـات وأكثرهـا حكمـة عـلى وجـه الأرض لأنـه قـادر عـلى الرؤيـة خـلال الظـلام والإجابـة عـلى أي سـؤال.

-»وهـل يمكنـه أن يـرى في ضـوء النهـار كذلـك؟» سـأل ثعلـبٌ أحمـر فانـبرى سـنجاب زغبـي وكلـب بـودل فرنـسي لـيرددا صـدى السـؤال.

«حقاً. هل يمكنه أن يرى في ضوء النهار كذلك؟»

ارتفعـت عقائـر الحيوانـات كلهـا بالضحـك مـن هـذا السـؤال السـخيف ووثبـوا عـلى الثعلـب ورفيقيـه وطردوهـم مـن المنطقـة برمتهـا ثـم بعثـوا رسـولاً للبـوم ورجـوه أن يكـون قائـداً عليهـم.

عندمـا ظهـر البـوم وسـط الحيوانـات كان الوقـت ظهـراً والشـمس سـاطعة. تبخـتر في مشـيةٍ وئيـدة مما منحـه مظهـرا مـن الأبهـة العظيمـة، ثـم نقّـل النظـر فيـما حولـه بعينيـه الكبيرتـين المحدّقتـين مما أضفـى عليـه مسـحة مـن مهابـةٍ لا تضاهـى.

«إنه الإله!»

صاحـت دجاجـة مـا وعندهـا ردد الباقـون الصيحـة «إنـه الإلـه!».
وهكـذا صـاروا يتبعونـه أينـما توجـه، وعندمـا شرع يتخبـط بالأشـياء ويصطـدم بهـا راحـوا هـم أيضـا يتخبطـون بهـا. وأخـيراً وصـل الى طريقٍ

عـام مبلـطٍ بالإسـمنت وتبسـمر في منتصفـه فحـذا الاخرون حـذوه. بعد هنيهـةٍ لاحـظ صقـر كان يقـوم بـدور الفـارس المواكـب لجلالتـه أن ثمـة شـاحنة تتقـدم نحوهـم بسرعـة خمسـين ميـلاً في السـاعة فنقـل الأمـر الى السـكرتير الـذي نقلـه بـدوره الى البـوم.

-»هناك خطرٌ داهم» قال السكرتير.

-»تو وِت؟» قال البوم.

-»أعني ألستَ خائفا؟» سأل السكرتير.

-»هوو؟» قال البوم، لأنه لم يكن قادراً على رؤية الشاحنة.

-»إنـه الإلـه!» صاحـت كل المخلوقـات مـن جديـد، وكانـوا مـا يزالـون يصرخـون «إنـه الإلـه!» عندمـا صدمتهـم الشـاحنة وسـوّتهم بـالأرض. صحيـح أن بعـض الحيوانـات قـد جُرحـت فقـط، لكـن أكثرهـم، وبضمنهـم البـوم، صـاروا في عـداد القتـلى!

المغـزى. يمكنـك أن تخـدع الكثـير مـن النـاس.. للكثـير مـن الوقـت!

عن المترجم

ماجد الحيدر

قاص وشاعر ومترجم

ولد في بغداد عام 1960

من أعماله المنشورة

1 النهار الأخير (مجموعة شعرية) – بغداد 2000

2. في ظل ليمونة (مجموعة قصصية) - بغداد 2000

3. ماذا يأكل الأغنياء (مجموعة قصصية) - بغداد 2002

4. مزامير راكوم الدهماء وقصائد أخرى (مجموعة شعرية) – بغداد 2002

5. نشيد الحرية وقصائد أخرى لشيللي(ترجمة) -دار الشؤون الثقافية-بغداد2004

6. الإيدز بين المناعة والفيروس- دار الشؤون الثقافية-بغداد 2004

7. عبور الحاجز-قصائد من الشعر العالمي (ترجمة) – دار المأمون-بغداد 2007

8. ناجون بالمصادفة (مجموعة شعرية) -- دار سبيريز-دهوك 2009

9. ضحك كالبكاء (كتابات ساخرة) – منشورات ملتقى الأهالي-بغداد- 2010

10 الثلج والنار والأغنيات-مختارات من شعر مؤيد طيب (ترجمة) – دار الثقافة الكردية-بغداد 2010

11 مالاني (قصص قصيرة بالكردية) – منشورات اتحاد الأدباء الكرد-دهوك 2012

.12 The Psalms of Rakoom the Black and Other Poems-Proclaim Press-Pittsburgh-P.A.-USA

.13 Yes! It's Me- Selected Poems-Union of Kurd Writers-Duhok-2014

14 في الذكرى السنوية لرحيلي (قصص قصيرة) – وزارة الثقافة – بغداد- 2014

15 غلطة من هذه؟ (مجموعة شعرية) – مطبعة جامعة دهوك- دهوك 2015

16 ستأخذنا الريح- مائة قصيدة وقصيدة من الشعر النسوي العالمي (ترجمة)-الهيئة السورية للكتاب-دمشق 2016

17 الملاك الألثغ الصغير (قصص) – دار أمل الجديدة – دمشق 2016

18 مؤيد طيب، قصائد مختارة (ترجمة) – دار ومكتبة جزيري -دهوك 2016

19 يهوداعميخاي-الله شفيق بأطفال الروضة وقصائد أخريات ليهودا عميخاي (ترجمة)- دار ألكا- بلجيكا 2018

.20 كف عني يا فيثاغورس (شعر) – دار سبيريز للطباعة والنشر – دهوك.2019

.21 لا ريح تقلني، لا أرض تحملني (شعر كردي مترجم) – دار الضفاف-عمان 2020

22. أمي تذهب الى الجنة، مختارات من شعر قوبادي جليزاده، شعر كردي مترجم، السليمانية 2021.
23. حكايات الموقد الخشبي، قصص وحكايات من الفولكلور الكردي، معهد التراث الكردي، دهوك 2021.
24. بلاد تكره المطر، مجموعة شعرية، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب، بغداد 2022.
25. بنسيون الربوة العالية (قصص قصيرة مترجمة عن الكوردية للقاص اسماعيل هاجاني)، دار الثقافة والنشر الكوردية، بغداد 2022.
26. أسطورة الخلق- قصص وأساطير عالمية – دار المأمون للترجمة والنشر- بغداد 2022
27. العنب المر-قصص من بلاد الكرد (ترجمة) – دار الثقافة والنشر الكوردية-2023
28. عصا هارون- رواية د. هـ. لورانس (ترجمة) – دار المدى 2025.

عنوان البريد الالكتروني
majidalhydar@yahoo.com

وقفا سويةً، الشيخ والصبي، وقد لفّهما سحرٌ لا ينتمي الى هذا العالم المنبسط الرتيب الذي يحيط بهما. وارتفع الطائر العظيم في ثبات، وبدت الأطراف السوداء للجناحين مثل خيطٍ مبهم يومض فوق بياض الجسد الناصع. حلق الطائر في دائرةٍ كبيرة ثم صعد عالياً فوق رأسيهما، ثم تسلق سريعا موغلاً في السماء القصيّة، وطوال دقيقةٍ أو أكثر بدا كأنه يتدلى دون حراك من الفضاء الخارج عن تخوم العالم، وأخيراً خبا البياض وذاب في شحوب السماء.. واختفى الطائر.

كانت أصابع العجوز تشد بقوة على ذراع الصبي.

وتفجرت الصيحة المحشرجة ثانيةً من بين شفتيه.

- "يا ربّ السماء العظيم!"

كانت تلكم الصرخة مزيجاً من الجذل والصلاة، خبا بعدها الضوء في عينيه... ثم انطفأ.

- "لقد رحل الى الجنوب"

ISBN: 978-9922-761-24-4

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
THE UNION OF IRAQI WRITERS PUBLICATIONS